أبو زيد الهلالي يعترف



لقاء صحفي

بقلم

عبد الرحيم الكردي

الناشر

اسم الكتاب

أبو زيد الهلالي

يعترف

اسم المؤلف

عبد الرحيم الكردي

سنة النشر

٢٠١١

الناشر

رقم الإيداع:

الترقيم الدولي: ISBN

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

لم يكن اللقاء بالدكتور الهلالي سهلا ليس بسبب الرقابة المشددة التي تضرب حول أمثاله فهذه يمكن التغلب عليها بوسائل كثيرة معروفة ولكن شفقة عليه بسبب حالته الصحية السيئة التي جعلت الأطباء ينصحون يعدم إجراء أي حوا مطول معه، لكن لحسن حظي أتيح لي ولقراء جريدة المحروسة هذا الحديث الطريف المسلي.

دخلت على الرجل فوجدته شبه هيكل عظمي، دمعت عيني. هل يصدق أحد أن هذا هو الدكتور الهلالي الذي كنا نراه في الجامعة؟ كانت تظهر صوره في المجلات والجرائد كأنه بطل كمال أجسام سبحان مغير الأحوال !! كان عقله حاضرا في كثير من الأحيان لدرجة مدهشة يتذكر كل شيء حدث له منذ ثلاثين عاما كانه يتلو من كتاب.. ولديه قدرة على التعبير تصور لك الأحداث كأنك تراها بعينيك، وأحبانا أخرى يغيب عقله فيخلط الأحداث التي مرت منذ دقائق.

ومع ذلك كان في غاية الرفق والمودة معي، قلت له إن القراء في شوق لمعرفة أخبارك فهل تتفضل علينا بتعريف القراء بشخصيتك العظيمة وماذا حدث لك وتحكي لهم الظروف التي مرت بك.. بتعبير صحفي مباشر: من أنت يا دكتور أبو زيد؟

اعتدل في سريره ثم قال:

اسمي أبوزيد الهلالي خليفة[١]، فأنا أبوزيد، وأبي اسمه الهلالي، وجدي اسمه خليفة، ولا صلة لي بابو زيد الهلالي بطل بني هلال المشهور.. قلت ذلك أكثر من مرة لضابط التحقيق فلم يصدقني، ظن أنه اسمي الحركي، أو أنني أستهبل، وكان يقول لي من مناخيره في كل مرة لاويا شفتيه على شكل شبه منحرف: عرفنا أنك أبو زيد الهلالي وأنك جدع. لكن اسمك الحقيقي إيه؟

ماذا أفعل حتى يصدقني؟ يرحم الله أبي ورطني في هذا الاسم المشبوه؟. كان يحلم بأن أكون بطلا مثل أبوزيد الهلالي.. كان يقول لي: عندما تنجب ولدا لا بد أن تسميه أبو القمصان[٢]. خيبت أمله.. كان أكثر مني خبرة بالحياة. لو كنت مثل أبوزيد الهلالي الحقيقي لم تستبح إبلي بنو اللقيطة.. كما قال الشاعر.

---

(١) هو العالم الكبير الأستاذ الدكتور أبو زيد الهلالي خليفة ،أستاذ علم الاجتماع ، ألف العديد من الكتب مثل «نظرية العقد الاجتماعي بين تومس هوبز وجان جاك روسو» و«أثر ابن خلدون في نشاة علم الاجتماع» و«علم الاجتماع السياسي».

(٢) أبو القمصان : ابن أبو زيد الهلالي في السيرة الهلالية

أنا الآن بلا هوية إذن أنا غير موجود كما يقول سارتر[1]، هناك فارق جوهري بين الحضور والوجود.. بطاقتي الشخصية التي تثبت اسمي الحقيقي ضاعت.. مزقها الضابط الذي سبقه ورماها أشلاء في صندوق المهملات، لم يكن لدي أي إثبات آخر يدل على أنني أنا.

حتى كتبي التي أحرص على أن يكتب اسمي في رأس أغلفتها الخارجية بخط كبير جدا لم تثبت عندهم هويتي لأنهم لا يقرأون هذه الكتب ولا غيرها. ولأن الحكومة لا تعترف إلا بالأوراق الرسمية المختومة بخاتم النسر الشريف، ومعهم حق لأن كل ما في هذه الكتب كذب - ليس كتبي فقط - فنحن جميعا نكذب.. كل ما نكتبه كذب. ما نكتبه لا يعبر عن حقيقتنا.. هل تعرف لماذا يفجر من يسمونهم بالإرهابيين أنفسهم؟ إنهم يعبرون عن ما في أنفسهم تعبيرا صادقا.. ظلوا فترة طويلة يكبتون ما بداخلهم ويكبتون ويكبتون حتى انفجروا من شدة الكبت. تخيل أن ثلاثمائة مليون قنبلة بشرية انفجرت فجأة في مساحة محدودة مثل الوطن العربي.. نعيش جميعا حياتين: حياة افتراضية زائفة غير حقيقية في الظاهر ونحيا حياة أخرى حقيقة في الباطن.. نكذب ثم نصدق أنفسنا.. أغمض عينيك ثم

---

(١) سارتر : فيلسوف وأديب وناقد وجودي فرنسي (١٩٠٥-١٩٨٠)

استمع إلى الراديو وتصريحات المسئولين واقرأ الصحف والكتب تجدنا نعيش حياة سعيدة لا أزمات فيها ولا مشكلات نرتع في بحبوحة من الرخاء والأمن والديمقراطية ثم افتح عينيك على الواقع تجده كما تعرف.. تخيل أن العلماء توصلوا فعلا إلى اختراع حبوب منع النفاق التي تحدث عنها يوسف السباعي ثم تخيل أن الحكومة وزعت هذه الحبوب على بطاقات التموين لعامة الشعب وشربها المسئولون عشرات الحبوب مذابة في كؤوس الشمبانيا تخيل كيف سوف تكون الحقيقة مضحكة ومبكية

ماذا يريدون مني؟ وما الفائدة في إثبات أن اسمي أبوزيد؟ أو أبو قردان؟ أو أنني أنا أو لست أنا؟ أنا مجرد كائن حي يعيش على هذه الأرض مثل سائر الكائنات الحية التي ترتع فوقها.. ليتني كنت مثل أبو زيد الهلالي الحقيقي إذن لأطحت برؤوسهم جميعا. ولكن سيف أبو زيدي مصنوع من البلاستيك وفرسه لعبة من الخشب الحبيبي؟ ورجال قبيلته لبسوا الطرح. لو امتدت الحياة بداروين ورأى ما رأيت لغير نظريته ولاكتشف أن الإنسان ليس أصله قردا بل أصله كلب.

س قيل في الصحف إنك اعترفت في التحقيق على أعضاء التنظيم.

ج أعترف لك أنني جبان. فقد أرحتهم منذ أول طريحة، أكثر الناس الشرفاء هذه الأيام السوداء يفعلون مثلي... عنترة نفسه لو عاش في عصرنا لما فعل أكثر مما فعلت ؟ سقراط شرب السم لأنه لم يستطع الإدلاء بصوته في الانتخابات الماضية وبعدما مات صوتوا له في الانتخابات الأخيرة.. أنا لا أقصد سقراط الذي في بالك أنا أقصد سقراط ابن خالتي حميدة رحمة الله عليها.

أعترفت بكل ما[1] أرادوني أن أعترف به، لم أعد أستطيع التفريق بين الصدق والكذب أو بين الحقيقة والزيف، سألوني من أنا؟ وأين ؟ ومتى؟ وكيف؟ ولماذا؟ كلها أسئلة لا معنى لها عندي ولا قيمة..

كل ما أذكره أنني كنت هناك. كنت أريد أن أخرج ولو إلى

---

(١) (ملحوظة) نسيت أن أنبه القارئ إلى أن المستشفى الذي كان يرقد فيه هو مستشفى الحميات ، كان يتلوى مع كل جملة يخرجها من قلبه .كل كلمة كانت تؤلمه. أشفقت عليه ... أشفقت عليه أردت أن أنهي الحديث. لكنه رفض ..أحسست بأن ما بداخله كالشهوة أشد عنفا ولذة ومرارة من أن يكبت ..يخيل لي أنه لو كبت ربما ينفجر ..تابع كلامه دون أن يعبأ بالتحذيرات

المشنقة. أو إلى جهنم، لا داعي لكل هذا.. فقد اعترفت بكل شيء أرادوه، أجبت بنعم على كل سؤال كان يوجه إلي، معظم الاسئلة لم أسمعها، ومع ذلك كنت أجيب بنعم لأستريح.. أحيانا كنت أنطق بـ(نعم) قبل أن يكتمل السؤال أو قبل أن أفهم ماهيته. كان المحقق دقيقا جدا ومنظما إلى درجة أنه كان يتلو ما بداخل المحضر الذي أعد له حتى العناوين الفرعية و الأخطاء المطبعية:

النوع

- : هل أنت ذكر؟
- نعم

التهمة

- هل أنت خائن للوطن خيانة عظمى؟
- نعم.
- هل أنت عضو في تنظيم إرهابي محظور وخطير؟
- نعم.
- هل أنت غير شريف (شرطة) غير شريفة ؟
- نعم.
- هل كنت تحاول قلب نظام الحكم بالقوة؟

- نعم.
- هل قاومت السلطات؟
- نعم

معلومات حول التنظيم

- هل كان محمد علي أحمد شريكا لك في التنظيم الخطير؟
- نعم.
- وأحمد علي محمد؟
- نعم
- وعلي أحمد محمد؟
- نعم.
- وفاطمة الزهراء
- نعم
- والدكتور هاني؟
- نعم
- وآخرون؟
- نعم

توقيع المذنب

....

س هل تعتقد أن هناك مؤامرة؟

ج هل يمكن أن يكون الدكتور جابر الفقي مخبرا وهو الذي وشي بي؟ أم أنا الذي وشيت به؟ أم هل يمكن أن يكون إرهابيا وأنا لا أعرف؟ هل له علاقة بهذا الموضوع؟ هل هو مذنب أم بريء؟ ولماذا قبضوا على الدكتور هاني؟ كل الناس يمكن أن يكونوا أعداء وأصدقاء في وقت واحد وعاظا ولصوصا. قضاة ومذنبين شرفاء وسفلة. لقد أصاب أينشتين كبد الحقيقة. كل شيء يكون ولا يكون. ولذلك فإن كل كلمة في لغتنا أصبحت تحمل المعنى ونقيضه معا فسدت اللغة انفكت العلاقة بين اللفظ ومدلوله وبين الأشياء وصورها الذهنية في الرؤوس. فإذا كتب صحفي: إن الوزير الفلاني شريف جدا فهذا يعني أنه خائن ومرتش وفاسد جدا. وإذا قال مسئول: سوف تنخفض أسعار البنزين فترقب زيادته، وإذا رأيت مبالغة في التدين فمعناه قلة الإيمان. ولذلك فنحن أحرار وبلادنا ديمقراطية والمسؤولون جميعا شرفاء وعاشت الأمة العربية كلنا أصبحنا مثل محجوب عبد الدايم في قاهرة نجيب محفوظ.. ولكن الشيء الذي يحيرني أنني لا أدري من هم أولئك المظاليم الذين سألوني عنهم فاعترفت بأنهم شركائي؟

تقول هل يؤنبك ضميرك لأنك ظلمتهم وهل في مثل هذه الظروف تسأل عن الضمير وإذا كان عندي ضمير هل كانوا سيبرئونهم؟ وهل شهادة مثلي لها قيمة ؟ومتى كانوا في حاجة إلى أدلة إثبات؟!!!. [1].

صورة الدكتور هاني لا يمكن أن تنسى...... منظره وهو يسد بجسمه الضخم وقامته القصيرة وكرشه المتدلي أمامه باب مكتبي واضعا يديه على عارضتي الباب وهو يحرك رأسه مرقصا حواجبه وشاربه وهو يغني: : يا اولاد الحلال.. مفكر وعالم.. وأستاذ جامعي ضايع... أصلع وصايع... ولابس نظارات وبدلة.. وماسك بإيده جرنال وقلم رصاص مكسور.

كان الدكتور هاني يمد الألف في كلمتي «الحلال» و«ضايع» والواو في كلمة «مكسور» مقلدا سمير غانم عنما يغني. قلت له متصنعا الجدية، حتى لا يحول الجلسة كعادته إلى ضحك وفكاهة: ياأخي كفاك هزار وتعال ننهي العمل الذي كلفنا به، الأمر جد يادكتور هاني.. أنت عضو معنا في اللجنة... الأمر والله خطير.

---

(١) في هذه اللحظة تقلب في الفراش وجعل وجهه ناحية الحائط ربما ليداري دمعة لم يستطع حبسها . لكن رنة صوته فضحتها.

قال ساخرا: ماهو هذا العمل الذي كلفت به اللجنة؟؟ أنا عارفه قبلك، أليس هذا العمل هو البحث عن أساتذة ضايعين؟ أنا ياأخي أدور عليه بطريقتي البدائية المتخلفة.. أنشده، أدور عليه كما كانوا ينادون على التائهين في العصر المملوكي وعلى العيال الضايعين عندنا في البلد. ولا حوجة للجان ولا يحزنون، ثم ضحك ضحكته البريئة المعتادة وأنزل يدية من ضلفتي الباب وقال بأسى يحاول أن يخفيه خلف غلالة وجهه الممتلئ، ياأخي هون عليك رفقا بنفسك هو بس الدكتور جابر هو إللي ضايع؟ علي النعمة كلنا ضايعين، أساتذة الجامعة ضايعين المدرسين ضايعين المهندسين والأطباء الشعب المصري كله ضايع، والله لو كنت مكان رئيس جمهورية لأخرجت منادين في الشوارع ينادون ليل نهار: شعب ضايع ياأولاد الحلال. نصه أمي والنص التاني صايع..

قلت له بصوت جاد وحازم لأوقف هزله الذي لا ينتهي: ياأخي بطل هزار، اقعد بس.

قال بجدية هذه المرة: هو عيب أن الإنسان يبحث عن نفسه لما يحس أنه ضايع، سواء كان فردا أو جماعة؟! والله أنا نفسي أتمنى أن

أطلع منادي يدور علي في الشوارع ليبحث عني، الضياع يادكتور مش ضياع الجسد، الضياع أعمق من هذا بكثير الضياع ضياع الذات ضاع الروح، سكت قليلا ثم قال: ألم تسمع بالفيلسوف اليوناني الكبير (ديوجين)الذي كان ينام في برميل طول الليل فإذا جاء النهار أشعل مصباحا وأخذ يبحث على هدى ضوئه الخافت في وضح النهار، فإذا سئل عن ماذا يبحث قال: أبحث عن نفسي «يعني عن حقيقة الإنسان الضايع الكامن فيه».

قلت له مازحا لأخفف الحزن الذي قرأته في عينيه: سبع صنايع والبخت ضايع، ما شاء الله خطيب وفيلسوف ومغني، لا خوف علينا إذا فصلنا من الجامعة، أنت تقدر تؤكلنا الشهد، تخطب في الجوامع وربما في الكنائس أيضا، وتغني في الأفراح والموالد. وتتفلسف على الغلابة.

قال وقد انفرجت أسارير وجهه: طيب أنا أخطب وأغني وانت تشتغل إيه؟

قلت: أشتغل...... مطبلاتي.

ضحك ضحكة عالية اهتز لها جميع بدنه.. ورقص مع اهتزاز كرشه

المكتب الذي التصق به.. و لم يملك السيطرة على يديه كعادته عندما يضحك يلوح بهما في الهواء كمن ينقر على طبله: أنت تعرف تطبل؟! وتطبل لمين ياغلبان؟ ومن سيتركك تقطع عيشه؟ البلد كلها طبالين ياجدع.. أجدع منك مية مرة.

قلت له: لا تضيع الوقت.. نريد أن نبدأ عمل اللجنة.

أطلعته على صورة من قرار مجلس الجامعة بتشكيل اللجنة.

س ماهي المهمة التى أوكلت للجنة؟

ج كانت هذه اللجنة قد شكلت لبحث ظاهرة خطيرة انتشرت هذه السنوات في المجتمع العلمي وهي هجرة العقول المصرية للخارج، وعدم عودة المبعوثين إلى الجامعات الغربية أو الشرقية التي أوفدوا إليها بعد حصولهم على الدكتوراة، أو تسرب المبعوثين بعد عودتهم والعمل في البلاد العربية أو في أعمال خاصة خارج إطار المهام العلمية التي أوفدوا من أجلها، وبالطبع هذه خسارة كبيرة جدا لمصر، لأن عدد الحالات كثير جدا، ولأن الأساتذة المهاجرين من خيرة العلماء، ولأن هناك ما هو أخطر من ذلك وهو الظروف التي

جعلتهم يهربون فإنها لو استمرت فإن البلد سوف تخرب. فقد نشرت بعض الصحف أن عدد هؤلاء المهاجرين بلغ حوالي ربع مليون عالم، منهم حوالي مائة من جامعتنا فقط.

شكلت هذه اللجنة برئاسة الدكتور المعتز بالله بركات نائب رئيس الجامعة لشؤون الدراسات العليا والبحوث رئيسا، ومن الأستاذ الدكتور محمد البلتاجي رئيس قسم الرياضيات بكلية العلوم عضوا، والأستاذ الدكتور نادر محمود أستاذ المحاسبة بكلية التجارة عضوا، والأستاذ الدكتور هاني علي أستاذ علم النفس بكلية الآداب عضوا ومني أنا.

ومن الأعمال التي أوكلت إلى اللجنة إحصاء هذه الحالات المهاجرة في الجامعة، ثم تصنيف هذه الحالات، من حيث كثافة الظاهرة في كل تخصص، وبيان حجم الظاهرة بالنسبة لكل دولة من الدول الموفد إليها، ورسم خريطة تبين الجهات الجاذبة لهذه العقول، ثم تحليل الأسباب التي دفعت كل حالة على حدة للهجرة، وتجميع هذه الأسباب المشتركة لتسجيلها باعتبارها أسبابا للظاهرة محل الدراسة، ثم اقتراح الحلول المناسبة لعلاج المشكلة.

سلمت الدكتور هاني صورة من قرار مجلس الجامعة فمر عليه سريعا بعينيه ثم طواه ووضعه في جيبه، وهم بالانصراف وهو يسأل: هل حددتم ميعادا لاجتماع اللجنة؟

قلت: أنا اقترحت على نائب رئيس الجامعة أن نرسل خطابات لعلمائنا المهاجرين في الخارج لنستوحي منهم العوامل التي أدت إلى عدم عودتهم إلى الوطن ثم يكتب كل واحد منا تقريرا عن الظاهرة، ثم نناقش هذه التقارير في الاجتماع.

قال: اقتراح طيب ولكن قبل هذا ينبغي أن يعهد لواحد من اللجنة أو من العلاقات الثقافية بعمل إحصاءات وجداول للحالات من واقع الملفات نفسها، ثم يقتصر عمل اللجنة على مراجعة البيانات، واستنباط دلالاتها، ثم تأتي التقارير والمناقشات بعد ذلك لتركز على أسباب الظاهرة واقتراح الحلول.

دخل في هذه اللحظة الدكتور سمير نصيف البنهاوي أستاذ مساعد بقسم الفلسفة بقامته القصيرة جدا وجسمه المستدير البض و شعرة الواقف المنكوش وهو يضع تحت إبطه حقيبة صغيرة كانها أجندة، ومن خلفه ظهر النصف العلوي للدكتور زهران المدرس بقسم اللغة

العربية ورأسه تكاد تلامس واجهة الباب وهو يحمل حقيبة سوداء كبيرة كأنها شنطة سفر ، كان الدكتور زهران على النقيض من الدكتور سمير ذا قامة فارعة الطول وجسم نحيل، ولا يتحرك في أي مكان إلا ومعه هذه الحقيبة الشهيرة، صاح الدكتور هاني مداعبا لهما كعادته كلما وجدهما معا: رقم عشرة وصل.

كان يلقبهما برقم عشرة لأن الدكتور زهران يشبه الرقم واحد في نحافته وطوله والدكتور سمير يشبه الصفر في استدارته وقصره، هما لا يغضبان منه أبدا لأنهما يعرفان أنه لا يقصد الإساءة إليهما، كان يحب الجميع وله قلب نقي مثل قلوب الأطفال.

جلسوا وتراجع الدكتور هاني عن الخروج، وضع الدكتور زهران حقيبته علي مقعد كان بجوار الكرسي الذي جلس عليه، فتح الحقيبة وأخرج منها لفافة مليئة بالسندوتشات، ودعا الجميع لمشاركته، كان الجميع يعرف ما بداخل هذه الشنطة المشهورة ففيها دائما كل ما يطلبه الإنسان في سفره أو في إقامته، فوطة وصابونة وشبشب لزوم الوضوء وسجادة صغيرة للصلاه وبيجامه وإبرة وبكرة، بالإضافة إلى الكتب والكراسات والأقلام.

قلت للدكتور زهران: أطلب لك شاي ولا حاجة ساقعة مع الأكل؟ قال بأدب واضعا يده على صدره مطأطئا رأسه: شكرا ياأخي، ثم أشار إلى الحقيبة: أنا معي عصير في الشنطة.

تبسم الدكتورهاني في جدية مصطنعة وقال: شنطة الدكتور زهران فيها كل محتويات الشقة والله أنا أشك أن يكون فيها دورة مياه.

ضحك الجميع بما فيهم الدكتور زهران نفسه، ثم قال الدكتور زهران: الواحد فينا مش ضامن الظروف في أي لحظة، يمكن يحتاج لهذه الأشياء، وبخاصة إذا طلب منه أن ينزل ضيفا على إخواننا البعدا الذين تعرفونهم، فهم كرماء جدا إلى درجة أنهم إذا دعوني لشرب القهوة عندهم أو المبيت عدة أيام في ضيافتهم لا يمكنونني من الذهاب إلى منزلي لإحضار أي شيء.

قال الدكتور هاني وهو يلعب حاجبيه: أي منزل؟ القديم أم الجديد ياعريس؟ أم هناك منزل أحدث؟ على كل حال أنا أموت في الحداثة.

قال زهران: ياأخي «وما فعلته عن أمري» إنما هو نوع من الجهاد لحفظ أعراض الأخوات المؤمنات.. وسد أبواب الذرائع أمام الشهوات وتكثير الأمة.

قال الدكتور هاني مازحا: تقصد تكسير الأمة..

قال الدكتور سمير: ياأخي أنا مش عارف أنتم عاملين في نفسكم كده ليه؟ معذبين نفسكم بالفاضي ليه، ماهو الإنجاز الوحيد الذي حققته جماعة الإخوان منذ إنشائها منذ سنة ١٩٢٨ حتى الآن؟ لا شيء سوى مناطحة الحكومات المتعاقبة وتشريف المعتقلات والسجون، وكل ما أنجزته أنها دفعت الغرب لدعم هذه الحكومات الفاسدة، مما أدى إلى بقائها وصمودها أمام أي إصلاح حقيقي.

قال زهران وقد توقفت لحيته عن الاهتزاز لتوقفه عن المضغ: نحن أصحاب مبدأ، وعلينا فقط أن نسعى لإقرار الحق والعدل، أما النتائج فبيد الله.

قال الدكتور هاني وقد تحمس للمناقشة موجها كلامه للدكتور سمير: يعني الشيوعيين عملوا إيه؟ أظرط من ستي إلا سيدي، فهم منذ سبعين سنة وهم يصدعون رؤوسنا بعبارات غير مفهومة مثل البلوريتاريا والدوسنتاريا والبورجوازية والرأسمالية والبركرومبية وفي الآخر، لما باظت الحكاية ناس منهم ربوا لحاهم ومسكوا سبح وناس تانين منهم باعوا أقلامهم في المزاد العلني لكل من يشتري،

مرة عملاء للأمريكان أعداءهم القدامى ومرة مطبلاتيه للحكومة لتبرير الاستبداد والطوارئ.

قال الدكتور سمير: الفكر الرجعي المتحالف مع الرأسمالية والاستعمار هو الذي أجهض كل المبادرات الاشتراكية سواء في مصر أو في دول العالم الثالث..... هل تعرف يادكتور هاني إحنا عاملين زي إيه؟ زي العربية التي يجرها حصانين واحد يجر العربية لقدام وواحد يجرها للوراء، فتظل العربية مكانها، بل ربما تتقهقر إلى الوراء إذا كان الحصان الخلفي أي الرجعي أقوى.

قلت لأفك الاشتباك بينهما: بصراحة الطريق الوحيد الذي ينبغي أن نسلكه هو طريق العلم والثقافة، لا تصدعوا رؤوسنا بالأيديولوجيات الشرقية والغربية مع شعب نصفه أميون، في البداية ينبغي أن نركز على النهوض بالمجتمع ثقافيا وعلميا ثم بعد ذلك سوف يختار المجتمع ما يناسبه.

تبسم الدكتور سمير ساخرا وقال: هل تعرف أن العلم قد أضر بمجتمعاتنا في حالتنا الحاضرة التي نعيشها؟

قلت: كيف؟ العلم لا يضر أبدا.

قال: الكل يعرف أن المؤهل الأساسي فيمن يديرون شؤون المجتمع هذه الأيام بدءا من رئيس العمال حتى رئيس الوزراء أن لا يتجاوز ذكاء الواحد منهم ٨٠درجة، أي بزيادة عشر درجات فقط عما هو مطلوب لاختيار عسكري الأمن المركزي.. يعني كلهم عساكر أمن مركزي. يسهل قيادتهم، فقل لي من الذي يرسم لهم الخطط الذكية جدا في قمع أذكى الحركات سواء كانت يمينية أو يسارية. من الذي يستخدم أحدث البرمجيات في عمليات التزوير في الانتخابات؟ ومن الذي يفصل القوانين سيئة السمعة؟ من الذي يكتب المقالات العبقرية في الصحف لتمجيد الدكتاتورية وتبريرها؟؟ بالتأكيد علماء وأساتذة جامعات ومثقفين باعوا أنفسهم مقابل الوجاهة والسيارات الفاخرة والحريم، خلينا ساكتين وناكل ساندوتشات فول زي أخونا زهران.

قال الدكتور زهران ضاحكا كأن الكلام أعجبه: بالمناسبة السندوتشات دي مش بالفول، هي في الحقيقة.... بالطعمية.

تداخلت أصواتنا بالضحك: وما الفرق؟ الطعمية بنت عم الفول والفول ابن عم الطعمية.

قلت: المشكلة والله ليست في الشيوعية ولا القومية ولا الإسلامية المشكلة يمكن تلخيصها في حاجتين: الفساد الداخلي العريق والمؤامرات الخارجية.. تعرفوا ليه جميع المشروعات القومية والإصلاحية فشلت في مصر، بدءا من هزيمة محمد علي سنة ١٨٤٠ ومرورا بثورة عرابي سنة ١٨٨١ وتحطم المشروع الناصري سنة ١٩٦٧؟ السبب أولا وجود فساد في الداخل وثانيا أن الذين قاموا بهذه المشروعات لم يقرأوا خريطة التوازنات الخارجية، أي تشابك المصالح الخارجية ثم عدم التعامل معها حسب الإمكانات المتاحة وليس حسب الآمال المرجوه.

تثاءب الدكتور هاني وتمطع في كرسيه ثم وقف وقال: ياخوانا انتو باين عليكم النهار ده عاوزين تباتوا في المعتقل. الحيطان لها ودان، أنا معنديش استعداد أروح معاكم... أنا عندي عيال عاوز أربيهم

قلت له ممازحا: ياأخي أولادك كلهم كبار واتخرجوا من الجامعة ولسه ماتربوش؟

قال في جدية مصطنعة: بصراحة أنا اللي لسه ما تربتش، كلنا ناقصين تربية.

الحيطان لها ودان؟

س......

في هذه اللحظة دخل الطبيب المكلف بمتابعة الدكتور أبوزيد، وبعد أن قاس ضغط الدم والنبض وراجع الملف المعلق فوق رأسه، نظر إلي نظرة عتاب وتأنيب ودود، ثم همس لي: ألم أنصحك بأن تتركه يستريح، الإجهاد خطر عليه جدا، أنا مضطر لأن أعطيه مهدئا رغم أن المهدئ في مثل حالته خطر أيضا، أعتذرت له وحاولت أن أبرر له موقفي فلم يتح لي فرصة، سكت. وبعد خروج الطبيب بدقائق تعالى انتظام تنفس المريض، فجلست بجواره وأغمضت عيني حلمت كأنني في صحراء شاسعة جدا والدكتور أبو زيد فارس له شوارب تتجاوز اذنيه ويركب فرسا عربيا أصيلا ويرتدي ملابس القتال التقليدية التي نراها في رسومات السيرة الهلالية الدرع والرمح والقوس والسيف، وعندما تأهب للانطلاق همز بطن فرسه بمهماز في كعب حذائه، وإذا بي أفاجأ بأن الفرس لم يكن سوي بالونة كبيرة على هيئة فرس كالبالونات التي يلعب بها الطفال في الأعياد، فست البالونة أصبحت بعد ثوان كالخرقة القديمة اصطدمت راس الفارس بالأرض انكسر سيفه لأنه كان من خشب، أستيقظت فزعا لأجده يقول.

هل تعرف أنني لا أستطيع النوم كلما أغمضت عيني أقوم قزعا.. أتخيل أنني هناك.[1].

هناك.. هنا.. هنا... الضوء الخجول ينبطح على البلاط القذر، كانت هذه الأرضية في زمان ما اثنتين وأربعين بلاطة مستقلة... الآن أصبحت بلاطة واحدة عمياء، وحد بينها الزمان والقذارة فصارت بلاطة واحدة كالجسد الواحد المفكك الملطخ بكآبة الفوضى.. محصور بين ثلاثة جدران جرباء.. أما الجدار الرابع فمن الحديد الصدئ المضفر، في وسط الأرضية أخدود طويل ينتهي عند الباب الحديدي بفرعين، يشبه البحر الأحمر على الخريطة. ربما يكون ناشئا من زلزال قديم، أو من رخاوة الأرض تحت البلاط، وربما من عدم خبرة المبلط أو قرفه، وربما لأن البلاط وضع من غير كمايات كافية

---

(١) لم يصرح لي الدكتور أبو زيد باسم المعتقل الذي كان فيه ولعله لم يكن يعرف اسمه لأن المعتقلين يدخلونه وهم في سيارات مغلقة معتمة ويخرجون منه وقد عصبت أعينهم ، لكن من المعروف أن هناك معتقلات كثيرة شيدت بعد الثورة مثل معتقل المحاريق بالوادي الجديد وقنا والطور بالإضافة إلى السجون التقليدية مثل طرة وأبو زعبل والقلعة والحربي والقناطر وبور سعيد ....وكل مدينة في مصر تقريبا .

من الأسمنت، كثير من المباني هذه الأيام تنهار فوق رؤوس السكان بسبب انعدام الضمير لدي المقاولين والمهندسين لأنهم لا يضعون الكميات المناسبة من الحديد والأسمنت.. أفضل المقاولين ألئك الذين تخصصوا في بناء المقابر أنظر إلى الأهرامات، حتى المباني التي تبني بواسطة الشركات الحكومية يسرقون منها مواد البناء، لكن من يسرق الأسمنت هنا فهو مجنون، ماذا يفعل به؟ وإذا سرقه فأين يذهب به، لا أنيس ولا أثر للحياة في صحراء يتيه فيها الدليل كما يقولون.

بدأ الضوء يتحرك ويميل إلى البياض مع ارتفاع الشمس خارج النافذة بدأت ظلال القضبان على الأرض تتخذ أشكالا هندسية بعد أن كانت سديمية، بدت الأرض كأنها لامعة من آثار مياه أزلية أو من آثار ملح له رائحة البولينا أو بقع لها لون القيء، لم يظهر للقضبان أثر على الحوائط، وهل يظهر الخال في جسم الأجرب، آلاف الخطوط والشقوق والحفر والبقع الكبيرة والصغيرة، كانها بقايا كهوف عليها بصمات من أزمنة تمتد إلى العصر الحجري مئات الظالمين والمظلومين سكنوا هنا قبلي قابلت فيها ناسا أردت أن أقابلهم

وآخرين لا أطيقهم، العظماء منهم والغلابة قابلت والدي رغم أنه مات منذ ثلاثين سنة وهو يقبل يد جدي.. رأيت سعد زغلول يضرب عبد الناصر بالمقرعة.. محمد علي يدخن التنباك وهو يطعن عمر مكرم في ظهره.. ونلسون مانديلا وجيفارا يشنقون نابليون رأيت فيها أكثر مما رآه المعري في رسالة الغفران أو دانتي في الجحيم.

اعتدت ألا أجلس في مكان واحد فترة طويلة، ففي الصباح أجلس بجوار الباب في مواجهة النافذة وفي الضحى أنقل برشي تحت النافذة بجوار دورق المياه الذي يستخدم احيانا مبولة.. ليس من أجل التغيير فقط.. بل أتحاشى القارعة أترقب الموعد الذي يرفس فيه الحارس الباب ليتأكد أنني مازلت حيا، الرفسة تخلع قلبي.. تشبه طلقة في ظهري المكسور. من ليس له ظهر تبقر بطنه، آثار خطوط في بطن الحائط مسجل عليها ما يشبه التواريخ

١٥|١٠|١٩٧٨ ...... ١٦ ... ١٧ .... ١٨ .... ٣٠

..... ١|٥ .... ٥|٦ ..... ٦|٦

يبدو أن الذي دونها محظوظ... كان يعرف متى سيخرج؟ وربما كان يعرف لماذا دخل؟ أما أنا... فلا أعرف من أين ولكني أتيت..

كل الناس يعرفون.. القاتل يعرف والسارق يعرف أما أنا فلا أعرف، يبدو أن جريمتي كبيرة. ربما هي. أنني أعرف أكثر من اللازم... المعرفة في هذا الزمان خطيئة.. لا تغتفر. يوسف ألقاه إخوته في الجب لا لأنه سرق أو قتل لكن لأنه حلم.. أو لأنه عرف.. وإبراهيم الخليل ألقوه في النار لأنه عرف الحقيقة، المعرفة في زمن المعلومات وزر.. المعرفة في أرض الفراعين خطيئة هذا ما اكتشف حديثا. في بردية قديمة وجدوا قصيدة من الشعر الحر تقول:

في أرض الحريه لكن

داخل قفص ذهبي محبوك..

والديموقراطية..

ذات الأنياب..

والبيروقراطية..

والسوفسطائية.

والبطيخ والكوسة.... والكوتة..

تحركت الظلال المستطيلة مقتربة مني. عندما تكون ظلال القضبان في الوسط تنطلق القنبلة.. خبطة رجل الحارس بالباب

الحديدي تدوي كالصاروخ. فترتج الحجرة. يبدو أن الجندي جديد... كنا نعرف الجنود الجدد من خبطات أرجلهم.. في البداية تكون رفسته قوية كانه حصان جامح ثم تلين وتلين.... بعد ذلك تصبح حانية مثل ركلة إنسان.. هم لا يتركون جنديا هنا أكثر من ثلاثة أشهر.. كثير من الجنود بعد استمرارهم هنا مدة أطول يتعلمون القراءة والكتابة على أيدينا في السر أو من خلف حجاب.. بعضهم يعودون لأنهم يصبحون متهمين.. أدركت لماذا كان أجدادنا ينصحون الآباء بعدم تعليم البنات القراءة والكتابة.. خبطة الجندي هي الساعة التي تنطلق بعدها نشرة الأخبار..

ينبعث صوت المذيع.. من زنزانة قريبة:

- هنا صوت الحرية. صوت الديموقراطية.. صوت الأمة.. سيداتي سادتي إليكم نشرة الأخبار الأولى من صباح هذا اليوم الذي أنتم فيه، يقرأ عليكم النشرة كل من الرفيق أحمد والأخ محمد والسيد منير.
- أيها الإخوة المؤمنون: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أيها الأفاضل غير المؤمنين: السلام على من اتبع الهدى.

- صرح مسئول كبير بأنه لا يوجد بالوطن العربي أي معتقل سياسي.
- علم من مصادر خاصة أن ثلاثة من الرفقاء وخمسة من الإخوة ماتوا ليلة أمس في معتقل الطور.
- أفادت مصادر عليمة أن وجبة الغداء اليوم باذنجان مسلوق وخبز بالرملة وأشياء أخرى لم يكتشفها العلم الحديث.
- انتهت نشرة الأخبار وإلى اللقاء في النشرة القادمة.

تلاشت ظلال القضبان على الأرض تماما... مما يعني أن آذان الظهر سوف يرفع بعد قليل.. بدت الأرضية على طبيعتها مشققة كئيبة.. بعد استلام وجبتي نقلت برشي ناحية الباب، اكتشفت على الحائط المواجه لي تحت النافذة اسما محفورا "المعتز بالله" هل يعقل أن يكون هو؟ ماذا فعلوا فيه؟؟سحلوه؟ مسحوا عقله؟ ربما يكون معتزا آخر!

في تجويف الميم من كلمة معتز ظهرت نملة لونها بني باهت لها أرجل أطول من النمل المعتاد ولها شارب ذكوري مثل شارب القط.. لا أدري أهي ذكر أم أنثى؟ قفزت النملة قفزا كأنها مهر صغير،

دارت لفت حول كلمة المعتز بمهارة.. وفي لحظة هبطـت إلى الأرض ذكرتني بدوريات الاستطلاع عندما كنت جنـدبا في الحـرب.. لم تعبـأ بي اتجهت نحوي انحرفت يسـارا عبـرت الشـق الـذي يشـبه البحـر الأحمر بسهولة.. قلـت لـو كـان فيـه مـاء لتوقفـت، أخـذت الـدورق وملأت الأخدود بالماء، حاصرتها من جهة الغرب اتجهت جنوبـا في الصحراء الشرقية سددت عليها الطريق وقفت مكانها لا تتحرك.. لقد هزمتها.. لو تحركت نحو وادي النيل لرفعت قدمي ودستها

انتزعت قطعة من كسر الحائط على حافـة النافـذة وبـدأت أكمـل رسـم خريطـة للـوطن العربـي عـلى الأرض، جعلـت دول المغـرب العربي ناحية الباب ودول المشرق العربي تجاه النافـذة.. والسـودان تحتي والبحر الأبـيض تجـاه الحـائط المواجـه لي. النملـة الملعونـة هربت لا أدري أين؟ هل غافلتني المـاكرة ورجعـت مـرة أخـرى إلى الجحر الذي في تجويف الميم من كلمة معتز ربمـا، وربمـا اختبـأت تحتي في جنوب السودان أو لعلها خرجت من تحت الباب عند جبـل طارق. كان الدكتور المعتز بالله لا يستطيع نطق الطـاء فكـان ينطقهـا «جبل غارق».

س ما هي حكاية الدكتور المعتز بالله وما دوره في اللجنة؟

ج الدكتور المعتز بالله رئيس اللجنة شاب أسمر طويل القامة بجسم رياضي متين وشعر أكرت مفلفل لم يتجاوز عمره الخامسة والثلاثين إلا قليلا، يخيل لك عند رؤيته أنه دمث الأخلاق ودود، يقابل كل من يدخل مكتبه بترحاب شديد، لا أدري كيف أصبح أستاذا في جراحة المخ والأعصاب في هذه السن، لكنه والحمد لله ترك الطب و تفرغ للسياسة وهذه نعمة من الله تعالى ورحمة.. ليس لأنه أمتهن السياسة ولكن لأنه ترك مهنة الطب، فهو إلى جانب عمله في إدارة الجامعة عضو في اللجنة العليا لختان الذكور، وعضو المجلس القومي للمرأة ،ورئيس اللجنة العليا لختان البنات وعضو المجلس القومي لحقوق الإنسان [١].

كان حريصا على حضور جميع أعضاء اللجنة في الميعاد المحدد تبين من النتائج الأولية التي أحصاها مكتب العلاقات الثقافية أن تخصصات الفيزياء والكيمياء والهندسة والطب في مقدمة

---

(١) نشرت بعض الصحف المعارضة تقارير نقلتها عن هيئات دولية معنية بحقوق الإنسان تتهم فيه الدكتور المعتز بالله أنه كان المشرف على تعذيب النشطاء السياسيين المعارضين لانتزاع اعترافاتهم .

التخصصات التي لا يعود المبعوثون فيها إلى أرض الوطن، كما ظهر أن الولايات المتحدة وكندا ودول أوربا تستولي على نصيب الأسد في الدول الجاذبة للعقول المصرية هناك حالة وحيدة غريبة بل شاذة جذبت انتباه اللجنة بل فاجأت جميع أعضاء اللجنة وهي حالة مبعوث اسمه: جابر عبد السلام الفقي في قسم علم الاجتماع بكلية الآداب، عضو البعثة العلمية للحصول على الدكتوراه في الولايات المتحدة الأمريكية.

والغرابة في حالة السيد: جابر أنه بعد أن حصل على الدكتوراة، وبعد أن حصل على أكبر جائزة تمنحها الحكومة الأمريكية لباحث في علم الاجتماع، وبعد أن أصبحت أبواب جميع مراكز البحوث الاجتماعية في العالم كله مفتوحة أمامه، رغم كل هذا فإنه اختفى، وبالأحرى هرب، والغريب في الأمر أنه أختبأ بعد عودته في مكان غير معلوم في جنوب الصعيد اختفى هناك، وبالتالي لم يستلم عمله حتى اضطرت الجامعة في إلى فصله.

كان على اللجنة أن تستعرض الرسائل الواردة من السادة العلماء المهاجرين وتفحص أهم الأسباب التي دفعتهم إلى عدم العودة..

كما هو متوقع لم يرد عدد كبير من الذين أرسلنا لهم، لكن الردود التي وصلت إلى اللجنة كافية لمعرفة الأسباب.

جزء من هذه الردود كان لطيفا ولغته مؤدبة والجزء الثاني فيه جرأة شديدة أما الجزء الثالث فكان يطفح بالقصص المؤلمة بل المآسي التي صادفها المهاجرون قبل أن يغادروا أرض الوطن وبعدما غادروه.

واحد من هذه الردود يقول فيه صاحبه «أنا رجل محب لبلدي وأتمنى أن أعود لكنني أرسلت في بعثة للتخصص في الفيزياء النووية لحساب البرنامج النووي الذي أسس في الخمسينيات فلما أكملت دراستي علمت بإغلاق هذا البرنامج فجأة بالضبة والمفتاح دون أي مبرر لإغلاقه وإذا كانت هناك نية لإغلاقه فلم يكن هناك أي مبرر لإرسال مبعوثين لحسابه يكلفون الدولة الملايين، بل علمت أن زملائى الذين رجعوا اشتغلوا في مهن لا علاقة لها بالتخصص وبعضهم هاجر إلى إيطاليا أو أمريكا الجنوبية، فما الفائدة من عودتي؟ ماذا أفعل أو ماذا تفعلون بي إذا عدت؟»

كتب آخر يقول «إذا عدت فلا آمن على نفسي وأولادي في ظل

حالة الطوارئ المزمنة التي تعيشها البلاد.. لم يسمع العالم طوال التاريخ أن شعبا يعيش في حالة طوارئ طول عمرة. لا في موسوعة جينس ولا موسوعة حنفي أبو زعيزع. أنا منذ وعيت على الدنيا وأنا طوارئ طوارئ طوارئ يعني القانون معطل.. الشعوب الثانية حتى في حوض الأمزون أو وسط إفريقيا إذا فرضت حالة الطوارئ فيها تكون يوم أو يومين ثلاتة بالكتير.. حد الله بيني وبينكم افرحوا بيها وربنا يزيدكم من الفقر والطوارئ وكل سنة وأنتم طوارئ و يهني سعيد بسعيدة»

رسالة ثالثة كتب صاحبها فيها جملة واحدة هي «أنا ناقص نكد وفقر»

رسالة رابعة يقول فيها صاحبها: «أنا عاوزكم تعملوا استطلاع رأي تسالوا فيه المواطنين في مصر هذا السؤال: هل يريدون البقاء أو الهجرة بلا عودة إلى أي مكان في الخارج ولو كان أسوأ مما أنتم فيه؟.. أنا واثق أن ٩٩٪ سوف يصوتون ب(نعم) لثقتهم أنه لا يوجد ما هو أسوأ.. من هذا وذلك إذا لم تزور نتائج الاستطلاعات».

بعد الاطلاع على جميع الردود ودراسة الحالات كتبنا التقرير

الختامي الذي سوف يرفع لمجلس الجامعة وأوضحنا فيه مايلي:

أولا: أن التخصصات التي تكثرفيها حالات الهجرة وتسرب المبعوثين هي التخصصات العلمية (العلوم الأساسية والطب والهندسة) وأن أكثر الدول جذبا للمهاجرين هي الولايات المتحدة وغرب أوربا، مع ملاحظة أن هناك حالة شاذة هي حالة الدكتور جابر الفقي فهو متخصص عي علم الاجتماع ومهاجر إلى الصعيد أي إلى الداخل وليس إلى الخارج وتوصي اللجنة بتشكيل لجنة خاصة لدراسة هذه الحالة على حدة في وقت لاحق لعدم توافر المعلومات الكافية في الوقت الحاضر.

ثانيا: تنحصر الأسباب التي أدت إلى عزوف العلماء عن العودة في:

١- سوء الأحوال السياسية والفساد الإداري والتخبط وعدم وجود خطط بحثية وعلمية.

٢- سوء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

٣- تدهور البحث العلمي والتعليمي.

رابعا: ترى اللجنة أن حل هذه المشكلة يمكن فقط عن طريق تطبيق مبادئ الثورة الستة وهي:

١ – القضاء على الإقطاع.

٢– القضاء على الاستعمار.

٣– القضاء على سيطرة رأس المال.

٤ – إقامة حياه ديمقراطية سليمة.

٥– إقامة جيش وطني قوي.

٦– إقامة عدالة اجتماعية.

عندما قرأ الدكتور المعتز بالله مسودة التقرير ضحك.. وقال: هل أنتم في حلم؟ من الذي سوف يوافق على هذا التقرير.

قلت له: هذا راي اللجنة وهو ليس من راسها بل هو صياغة للردود التي جاءت من المهاجرين أنفسهم، ولو أردت حذف التوصيات الخاصة بمبادئ الثورة فأنا شخصيا ليس لدي مانع.

قال على كل حال أنا سوف أعرض التقرير على الجهات العليا ثم نناقش الأمر معا والأمر شورى وأنا لا أريد لكم ضررا أنتم زملاء أفاضل وأنا أخاف عليكم.

في اليوم التالي استدعاني الدكتور المعتز باللة وحدي، وأخرج لي ورقة من حقيبته وقال ما رأيك في هذا التقرير؟

قرأت:

تقرير

بناء على قرار مجلس الجامعة بجلسته رقم ٦٥٤ بتشكيل لجنة لدراسة ظاهرة عدم عودة المبعوثين وهجرة العقول، اجتمعت اللجنة عدة مرات واطلعت على الملفات وعلى الخطابات الواردة من المبعوثين وبعد مناقشة الموضوع بصورة دقيقة ترى اللجنة ما يلي:

١- أن الذين لم يعودوا إلى أرض الوطن أو الذين هاجروا قلة قليلة مارقة لا تمثل واحدا في الألف.

٢- أن أكثر الذين لم يعودوا هم من المتخلفين دراسيا ولا فائدة من عودتهم وأنهم غير أسوياء نفسيا.

٣- أن بعض الجهات المعادية للوطن من الخارج أو الحاقدين من الداخل يضخمون من الموضوع لمآرب سياسية وأيديولوجية.

٤- أن عدم عودة هؤلاء في ذاتها ظاهرة صحية لأنها تشارك في حل مشكلة ازدحام السكان.

بالطبع ثرت ورفضت رفضا قاطعا بل ثرت وارتفع صوتي بعبارة: «تهريج» أفلتت من فمي رغما عني.

قال بهدوء وهو يبتسم ابتسامته المعروفة: لا تغضب هناك قرار من مجلس الجامعة بتعديل تشكيل اللجنة، لقد تدارك مجلس الجامعة الأمر ورأى أن اللجنة لم تمثل فيها المرأة ولا الإخوة المسيحيون ولا شباب الباحثين فأضاف للجنة كل من:

١- د. بهيجة مصباح

٢- د. نهال زيدان

٣- د. قسطنطين جريس

٤- د. نادر سعد

٥- عماد علي

٦- بشرى الديب

حبسني الغضب عن الكلام وخرجت وقد ارتفع ضغط الدم في عروقي، لو كنت أملك مورد رزق أخر لاستقلت لو كنت نجارا أو حدادا لفعلتها.

أصبحت اللجنة مكونة من أحد عشر عضوا.

لم يستغرق الاجتماع الأول والأخير للجنة المعدلة سوى ثلاث دقائق، قال الدكتور المعتز رئيس اللجنة: لدينا تقريران معروضان

على اللجنة الأول أعددته أنا والثاني أعده الفريق القديم بزعامة أستاذنا الفاضل الدكتور أبوزيد الهلالي، وكما تعرفون فإننا بلد ديمقراطي كل شيء فيه بالتصويت، فالموافق على التقرير الأول يرفع يده

الموافقون = ٩ الموافقون على التقرير الثاني = ١ امتنع واحد عن التصويت

وتمت الموافقة على التقرير الأول بأغلبية ساحقة...

س....

اصفر لون الدكتور الهلالي.. ارتعش النصف الأيسر من وجهه جاءته نوبة الهذيان مرة أخرى:

: فوجئت بأن طابورا من النمل يخرج من ثقب ناحية المغرب العربي مقدمة الطابور كادت تصل الحدود الليبية متجها إلى الشرق متعرجا جنوب الحدود التونسية وعبر مدينة قسطنطينة بالجزائر وفاس ثم شمالا إلى تطوان ومؤخرته عند جبل طارق.. الجحر إذن ناحية جبل طارق .

وضعت إصبعي أمام الطابور لأوقف تقدمه نحو الأراضي

المصرية كإجراء استباقي ولم لا أمريكا دمرت العراق وأفغانستان والصومال رغم بعد أراضيها كإجراء استباقي دفاعي أيضا. كان قائد الطابور لئيما للغاية توقف عن الحركة هو والمقدمة أم مؤخرة الطابور فقد انتشرت بشكل يبدو كانه عشوائي شمالا وجنوبا بشكل يشتت خطط العدو ومن ثم يستحيل السيطرة علية، بعض النمال اتجهت صوب تونس العاصمة والبعض الآخر اتجه غربا ناحية الصحراء وفريق ثالث اتجه ناحية نواكشوط. رفعت إصبعي لأتابع حركة هذه الفوضى المدبرة (الفوضى الخلاقة)يمينا ويسارا هنا وهناك وهنا وما كادت تمر لحظات حتى فوجئت بأن القائد الماكر اندفع بالمقدمة شمالا ثم شرقا نحو العلمين لقد دخل الحدود المصرية إذن رومل بكل دهائه فشل في الوصول إلى الإسكندرية لكن هذا الداهية لو ترك هكذا دون مقاومة فسوف يصل إلى القاهرة وربما بعدها إلى مكة والمدينة، فقدت صوابي وقفت لا بد من سحق كل النمل مهما كان الثمن رفعت وضربت رأس الأفعى بكل طاقتي فأحدثت دويا هائلا رفعت قدمي لأجد الخبيث لم يصب بأي سوء ولم تقتل نملة واحدة من جنوده، لقد استغل طوبوغرافية الأرض ووجود

حفر وأخاديد في الاحتماء من الضربات وبدأ يواصل الزحف. غلت الدماء في رأسى عندما وجدت طابورا أخر زحف ناحية الخليج العربي باستراتيجية أخرى غريبة. فقد انتشر هذه المرة في شكل مجموعات متعرجة مجموعة في شمال العراق تتجه غربا وأخرى في جنوب العراق تتجه نحو عمان ، فقدت صوابي أخذت أخبط برجلي هنا وهناك رجل في المشرق ورجل في المغرب رجل هنا ورجل هناك حتي تعبت وارتميت على الأرض بلا حراك وغبت عن الوعي ولم أشعر بشيء إلا اقرصات النمل في ظهري وبطني داخل ملابسي والجندي وهو يصيح في الخارج قائلا: رقم ٩١٥ اتجنن يافندم.

جئته بكوب من عصير الليمون. شربه ثم تنهد وقال

: الملف الخاص بالسيد جابر يؤكد أنه لم يكن ساذجا حتى يهرب إلى الصعيد.. الناس هذه الأيام يهربون من الصعيد ولا يهربون إليه، فهو متفوق دراسيا والدليل على ذلك أنه كان أول الثانوية العامة على محافظة القاهرة في السنة التي حصل فيها على الثانوية، بل كان ترتيبه الثاني على مستوى الجمهورية، وترتيبه في الكلية الأول طوال سنوات الدراسة «ممتاز مع مرتبة الشرف» يجيد الإنجليزية والفرنسية

والألمانية، مثقف حصل على جائزة الطالب المثالي..

بصراحة شغلنى موضوعه جدا اعتبرت الموضع شخصيا بالنسبة لي، فهو مواطن مصري مثلنا ويمكن أن يكون الآن في حاجة إلينا، ويمكن أن نتعرض لمثل ما يتعرض له لو أصابه سوء لا قدر الله، وموضوعه لا علاقة له بهجرة العقول أو عدم عودة المبعوثين فهو قدعاد بالفعل إلى أرض الوطن ولكن أين ذهب؟ إلى الصعيد؟ لماذا؟ ملفه لا يدل على أن له أية صلة بالصعيد حتى يمكن التكهن بأنه ذهب إلى أهله أو ذهب ضحية لحادثة ثأر.. ولماذا لم يشر التقرير الذي أعده الدكتور المعتز بالله إلى حالته؟ هل هناك مؤامرة؟ هل هناك علاقة؟

كان ينبغي على الجهات الحكومية أن تبذل الغالي والرخيص في سبيل المحافظة على هؤلاء الشباب من أفذاذ الوطن، لأنهم ذخيرته في المستقبل، بل لو حسبنا الأمر حسابا ماديا فإننا سوف نكتشف أن ضياع هؤلاء الشباب يعد إهدارا للمال العام، فالمبعوث الواحد يكلف الدولة عشرات الآلاف من الدولارات، وتسرب هؤلاء لا يمثل فقط خسارة مادية فقط بل خسارة علمية ومعنوية، خسارة لا تؤثر في الحاضر فقط بل في المستقبل، لكن الجهات الحكومية

مشغولة بنفسها، كل واحد لا يهمه إلا نفسه، ماذا يحدث لو ضاع ابن للوزير مثلا؟ الدنيا كلها سوف تنقلب، دار في خلدي خاطر.. ، ماذا لو ضاع الشعب المصري كله؟ هل سوف يبحث عنه أحد؟ ليست غريبة لقد ضاع منا قمر صناعي ولم يعثر عليه أحد. ومن كم سنة نشل ونش في ميدان رمسيس. هل كن نسكت لو ضاع وزير مثلا أو رئيس الوزراء..؟.. شعرت بالضحك... لو ضعنا جميعا فسوف يفسر الأمر على أنه مؤامرة إرهابية هدفها إذلال الحكومة بتركها محتاسة بدون شعب تحكمه.

رفعت سماعة التليفون اتصلت بالدكتور هاني سألته إن كان يعرف أي أحد من زملاء الدكتور جابر. كنت أريد الحصول على أي خيط يوصلني لأي معلومة تكشف لي سر اختفائه، قال لي إن في الكلية عددا من زملائه الذين كانوا معه في الدراسة منهم الدكتور محمد سيد علي والدكتورة فاطمة الزهراء ثم همس قائلا هل تعرف أنه كان بينه وبينها علاقة عاطفية وأنهما أوشكا على الزواج.

أرسلت إليها، وتحدثت معها في الموضوع، قالت إنها الآن متزوجة، ولا تريد فتح موضوعات قديمة، وقالت، إنها لا تعرف عنه

إلا أنه ندل وأنه مولود في شارع الخرنفش بالقاهرة، وأن أسرته فقيرة، وأن له عددا من الإخوة والأخوات.

فتشت في الملف الخاص به عن رقم للتليفون فلم أجد، كل ما وجدته غير شهاداته الدراسية، بعض البيانات الروتينية مثل:

الاسم: جابر عبد السلام الفقي.

تاريخ الميلاد: ٦-٦-١٩٦٧

محل الميلاد: شارع الخرنفش – الجمالية القاهرة

الحالة الاجتماعية: عزب.

اتصلت برئيس قسم رعاية الشباب في الكلية، الأستاذ عبد الستار محمود، كان صديقا لي، وكان في شبابه أخصائيا اجتماعيا قديرا وأعرف أنه من سكان الجمالية، طلبت منه أن يساعدني في التعرف على أسرة جابر، وأعطيته العنوان، قال أنه يعرف القاهرة القديمة شارعا شارعا وله زملاء يعملون في الشؤون الاجتماعية هناك ويعرفون هذه المناطق معرفة جيدة ويمكن أن يساعدوا في العثور على العائلة.

بعد حوالي أسبوع جاءني الأستاذ عبد الستار، قال إن لديه معلومات جديدة عن جابر.

-هات ياأستاذ عبد الستار ما عندك.

- هو من أسرة فقيرة جـدا، كـان والـده يبيـع السـبح أمـام سـيدنا الحسين ثم انتقل للعمل داخل مقابر الإمام. وله ثلاثـة أولاد وبنـت، الولد الكبير يعمل حانوتيا ويسكن مـع زوجتـه وأولاده في حـوش في ترب الخفير، والثاني عامل نظافـة في البلديـة، والثالـث هـو الـدكتور جابر، أما البنت فهي عـانس لم تتـزوج حتـى الآن وتعمـل خادمـة في البيوت.

كانوا يسكنون في بدروم في الخرنفش نقلوا منه إلى بدروم في شارع المنصورية، بعدما طردهم صاحب المنزل الذي في الخـرنفش لعـدم قدرتهم على سداد الإيجـار، ثـم اسـتقروا أخيـرا في حـوش في مقـابر الإمام.

قلت له: أريد أن أقابل والد جابر أو أحد إخوته.

قال: - خلال يومين يكون عندك واحد منهم.

قلت: - لا..... أنا أريد أن أذهب إليهم

قال - كيف تذهب إليهم وأين؟

قلت - في أي مكان، الأفضل أن أذهب أنا إلى بيتهم.

قال: إن حالتهم صعبة جدا ولا أريد لرجل في مقامك أن يذهب إلى المقابر.

قلت مازحا: ياأخي لا بد لنا آجلا أو عاجلا أن نذهب إلى هناك.

لما رأي إصراري على الذهاب، قال: مادمت مصرا فأنا تحت أمرك، حدد يوما للذهاب وسوف أرتب الأمر.

قلت: يوم الجمعة القادم.

قال: بلاش يوم الجمعة أو الخميس، فهما الموسم الأسبوعي بالنسبة لسكان المقابر.

قلت: السبت مناسب؟

قال: على بركة الله.

تركت سيارتي العتيقة في شارع صلاح سالم، لا خوف عليها من السرقة.. تبسمت.. ربما يظنها المارة إحدى عربات نقل الموتى.. تذكرت قول صديق لي كنت أوصله – في طريقي- إلى بيته: ميزة سيارتك ياصديقي أنها لن تسرق.. هي تحمي نفسها بنفسها، قلت له: أحيانا أنسى المفاتيح فيها وهي مفتوحة في الشارع وأعود إليها فأجدها كما هي.. أصيلة، قال: لا تقل: أنسى المفاتيح.. بل أنت

تتعمد أن تبتلي بها اللصوص المساكين. لكنهم شطار طلعوا أذكى منك.

مشينا داخل المقابر، بعد مسافة ليست قصيرة من المنحنيات والطريق المترب ورائحة الموت، على جانبي الطريق حوائط عالية قديمة، وبوابات شاهقة كأنها أبواب مساجد مهجورة تعلوها لافتات رخامية عتيقة معظمها مكتوب بالخط الكوفي: (هذا مدفن "حكمت باشا أوغلو وزير الحقانية ")... (هذا مدفن " عائشة خاتون هانم حرم حاكمدار القاهرة") (هذا مدفن علوبه باشا ناظر الجهادية) (يكن باشا) بك... باشا.. بك... الغريب أن المنطقة رغم أنها مخصصة للأموات مزدحمة جدا بالسكان، كأن سكان مصر جميعا تركوا مساكنهم وجاءوا هنا، باعة خضراوات، وخبز وزهور من التي توضع على المقابر، ناس كثيرون يجلسون على الأرض في جانبي الطريق، أطفال حفاة يلعبون الكرة في الشارع، أصوات عراك تنبعث من داخل الأحواش، يختلط صياح أطفال رضع مع روائح الموت والطبيخ والبصل والطشة والتقلية.

أخيرا عثرنا على الرجل، هيكل مخروطي جالس على الأرض كأنه

هرم سقارة. تغطية ملاءة قديمة متربة تستر ما تبقى من ملابسه البالية، رجل في السبعين لكن يبدو كأنه تجاوز المئة

اقتربنا منه. برقت عيناه من بين أجمة كثيفة من شعر.. نباتات الحلفا الجافة على شاطئي خديه الضامرين ، مد يده العجفاء الضاربة للصفرة بالسؤال كأنها يد ميت أوعرجون قديم، ارتفع صوته النحيل من جوفه كأنه خارج من قبر: - الله لا يرميك في ضيق، الله يستر طريقك، الله يحنن عليك. توقف...

فزع الرجل لما اقتربنا منه، ربما ظن أننا بوليس، ألقى الأستاذ عبد الستار السلام: السلام عليكم ياحاج عبد السلام. لم يرد.. لم يألف هذا النوع من التعامل الإنساني الحميم. برقت عيناه مرة أخرى وارتعشت نباتات الحلفا فوق فمه وفوق عينيه وحول أذنيه.

همس عبد الستار في أذنه مشيرا ألي: الدكتور مصطفى مخلوف بك. عاوز يسألك عن ابنك جابر..

ثارت في الهواء موجة من التراب والعفن عندما انتفض الرجل، كأن عقربا لدغته... قفز نصف واقف يلملم من خرقه وهو يصيح بأعلى صوته رافعا يديه: الله يخرب بيوتكم... الله يخرب بيوتكم.

كلكم.. سيبونا في حالنا بقا عاوزين مننا إيه تاني.... الله يخرب بيـوت الباشوات والبكاوات والأفنديات والدكاترة، الله يخرب بيـت الـدنيا كلها.

وضع عبد الستار يده على ظهر الرجل ليطمئنه وقال له: ياعم عبـد السلام حد يقابل ضيوفه بالشكل ده؟ الدكتور مصـطفى زميـل ابنـك جابر وجاي يزورك ويطمئن عليك.

هدأ الرجل قليلا.. طأطـأ رأسـه.. الـدموع تتسـاب بـين الشـقوق العجفاء في تلافيف لحيته قال بصوت مخنـوق:.. ابنـي جـابر؟! أيـن هو؟ هل تعرفون ياأولادي أين هو؟

قلت: احنا جايين عشان تساعدنا في الوصول له. هو يهمنا زي مـا بيهمك بالظبط.

قال: أنا أساعدكم؟! كان ساعدت نفسي ياولـداه.... بعـد لحظـة صمت قال: وحضرتكم قابلتوة إمتى؟

أشفقت على الرجل.. فقد كان يرتعش وهو مقوس الظهر.

قلت: اقعد ياعم عبد السلام. اقعد استريح.

قال: ما يصحش أنتو مهما يكون ضيوفي، تعالو معاي للحوش.

لم نعترض.. انتهزناها فرصة للإمساك بـأي خـيط يوصـلنا لجـابر. بضع خطوات عددناها عدا. وقفنا أمام باب خشبي مقوس كبير، فوق الواجهة الشامخة لوحة رخامية مكسورة مكتوب عليها بالخط الكوفي ثلاثة أسطر، في السطر الأول كلمة «هذا مدفن......» وبـاقي السـطر مهشم، في السطر الثاني جزء مهشم في أوله هكذا «... عضـو مجلـس شورى النواب ١٢٨٣ه -١٨٦٦م ».

حرك الشيخ ترباسا حديديا صدئا بعـرض ضـلفتي البـاب المتـرب، فانفشخت كلتا الضلفتين عن شق منحرف يسمح بدخول واحد نحيف، ولج الرجل فيه ولوج مدرب ماهر. وظللنا واقفين أمام البـاب، سـمعناه ينادي: يابهية، لم نكن نتوقع أن يكون هناك أحد في الداخل، فكـأن البـاب لم يفتح من زمن وإذا كان قد فتح فكيف سيخرج مـن بالـداخل والبـاب مغلق من الخارج؟ تابع النداء بصوت كالفحيح: اتفضلوا.

دخلنا محـاذرين أن نلـوث ملابسـنا بـالتراب، في الـداخل قاعـة واسعة مكشوفة بهـا شـجرة تحتهـا مصـطبة، بجانـب السـور، وعـلى الجانب الأيسر باب حجرة بجـواره شـباك كبيـر، يبـدو أنهـا حجـرة المدفن. تنبعث من الحجرة رائحة لطعام فاسد أو لدورة مياه قريبة.

جلسنا على المصطبة وجلس الرجل يسعل بجوارنـا عـلى الحافـة، خرجت بهية من حجرة يبدو أنها الحجرة، مشـمرة ذراعيهـا، ملامـح وجهها تدل على أنها صارمة وحادة الطبع، ربما كانت تمـارس عمـلا يدويا داخل الحجرة.. كالغسيل. أو الطبخ عنـدما ناداهـا أبوهـا..... شابة بين الثلاثين والأربعين، تربط راسها بمنديل وتلبس جلبابا أزرق قديم. خفضت رأسها كأنها حيية ثم قال:

-مسا الخير..

وقبل أن نرد التحية تابعت: -تشربوا إيه.

-شكرا.

لم تحاول مرة أخـرى، وكأنهـا أدت واجبهـا بمجـرد أن عرضـت، وكأننا أخذنا قرارا بالامتناع النهائي بمجرد أن شكرنا. حمدت الله فمن له نفس يشرب أي شيء هنا؟ ودخلت حجرتها مرة أخرى.

قال عبد الستار ليجر الرجل للكـلام: جـابر إنسـان فاضـل وكـل زملائه بيحبوه.

تنهد الرجل ثم قال: هو فين دالوقت؟ الله يسامحه..... بهدلنا.

قلت: إزاي؟... جابر زي النسمة.

قال: زي النسمة اللي تجر وراها مصايب زي الطين.

قال عبد الستار: هو عمل إيه عشان تقول عليه كده؟؟

قال الرجل متألما: - يابني ماتقلبش المواجع الحيطان لها ودان وأنا مش ناقص مصايب.

قلت: - ياعم عبد السلام.. والله العظيم احنا على باب الله وبنحب جابر وهو أخونا وكل ما نرجوه هو العثور عليه لمصلحته، وكلامك لينا بصراحه هياساعنا على الوصول إليه واستمراره في الجامعة، لحسن هيتفصل من الجامعة لو غاب أكتر من كدة.

قال: – كمان هيفصلوه، مش كفاية اللي عملوه فيه وفينا؟؟

قرب الرجل راسه منا وقال هامسا أقول لكم سر: البلاوي كلها جات من الكلب.

قلت باسما: الكلاب كثيرة.. أي كلب؟ من تقصد؟

قال: الراجل السافل تاجر المخدرات وحرامي الجثث.

قلت: من هو؟

اعتدل في جلسته كانه تعب من الانحناء: - أنا أحكي لكم الحكاية من أولها: «كان فيه ولد ندل هنا في المقابر بيشتغل صبي حانوتي أصل

صبيان الحانوتية هنا كثير عاملين زي النمـل كـل واحـد صـايع مـش لاقي شغل يشتغل صبي حانوتي في الأول أغـراه بعـض الشـياطين في الاشتغال ببيع الجثث لطلبة كلية الطب، وبعـد مـا اتقـدم الطـب زاد الطلب عليه أصبح هو بنفسه شيطان، جـرى القـرش في إيـده شـارك الخواجات في تجارة أعضاء الميتين، بقي زي ما بيسموه في الأيام دي راجل أعمال، وسعت التجارة، دخل في موضوع البانجو والحشـيش والهروين، بقى معاه إيش عمـارات وأبـراج وإيـش أراضـي، وإيـش عربيات، وإيش قرى سياحية وفنادق، يعنـي طلـع فـوق فـوق قـوي، وبعدين بقي عضو في الحزب ومجلس الشعب، وبيقولوا كمـان بقـي وزير».

قلت: وإيه صلة الراجل ده بجابر؟

قال: أصله راجل معفن، وسخ يعني.

قلت: الناس الأيام دي بقوا كلهم وحشين.

قال: - «تتصور إن الراجل ده لما لقي ولدي جـابر شـاطر وذكـي استخسره فينا، كان جابر ولـدي مـع ولـده معتـز في فصـل واحـد في الدراسة من الابتدائي، كل سنة ولدي يجيب الدرجات النهائية وولده

خايب ينجح بالعافية، رغم أن جابر والله العظيم كان يروح المدرسة على لحم بطنه من غير فطور، وكان يروح وجزمته مقطوعه. ومنطلونه مرقوع.... ».

توقف... حبسته الدموع.........

واصل الرجل حديثه بعد أن مسح عينيه بكمه: " أصلنا غلابه وعلى باب الله وعلى قد حالنا.. واليد قصيرة... المهم. بعد ما وصل جابر للمرحلة الثانوية ماتت أم العيال الله يرحمها.. جانا الكلب هنا بنفسه عشان يعزينا وخد جابر في حضنه وقال لي: جابر زي ابني وأنا عاوزه يتربى على إيدي... أنا بيني وبينك صدقت... لقيتها فرصة... مين يلاقي إللي يشيل عنه الحمل.. أخد الواد لبيته وكان يبعت لينا كل شهر قرشين، بعد كده حد يصدق إن ابني الشاطر يسقط في الثانوية وابنه الفاشل ينجح ويدخل كلية الطب؟! الواد رجع هنا تاني نفسه اتكسرت ودخل الحوش ده وقعد فيه وبعدين ذاكر دخل الامتحان هب طلع الأول لكن بع كم سنة. دخل الكليه وربنا كرمه.

قلت: ربنا عوضه خير وخلصه من الظالم.

قال وقد ارتفع صوته: -«هو سابه في حاله، الراجل ده معجون

بمية العفاريت هو وأمثاله، فضل ورا الولد مرة يغريه بالعمل معاه في الهباب بتاعه ومرة عاوز يجوزه بنته، الواد طبعا عارف الفوله.. رفض، ومن مضايقات الكلب ليه وتسليط أتباعه عليه وقلة الحيلة والفلس كان يقعد طول اليوم في الجامع يذاكر ويصلي وربى دقنه، قام الكلب مسلط عليه المباحث خدوه إخوان مسلمين فضل في المعتقل كم سنة، رجع الواد من السجن كره نفسه وكره الجامع وبطل يصلي، وبقت روحه في مناخيرة، تخيل الكلب يعمل فيه إيه؟؟

-عمل فيه إيه؟؟

-سلط عليه المباحث.. قبضوا عليه تاني لأنه قال إيه: : بقي شيوعي كافر. وراح السجن تاني وعملوا فيه إللي إنت عارفه وانا عارفه ، موتوا الواد وهو حي.

خرجت بهية من الحجرة -ويبدو أنها كانت تسمع كل كلمة من حوارنا – قالت:

-والله ياسعادة البيه جابر شاف إللي ماحد شافه، كنت اشوفه بعيني يخلوه وهو رايح المدرسة يشيل الشنطة للواد الخيبان إللي اسمه معتز، ويمسح له الجزمة، زي ما يكون العبد بتاعهم، دا غير الضرب

والإهانة والشتيمة.

قلت: هل هناك أشياء تركها جابر قبل سفره؟

قالت بهية: كل حاجته موجوده جوه، ملابسه القديمة سريرة بطانيته، كل يوم انفض هدمته وانتظره، أنا محتاجه لتراب رجليه، أنا حاسة بعد سفره إني يتيمة.

نظر الأب إليها نظرة زجر وقال: عيب يابهية، تقولي كده وأنا حي؟

قالت بحياء وهي تمسح دموعها: ربنا يخليك لينا يابا.

قلت: أنا لا أتكلم عن الملابس والهدوم، أنا أتكلم على الكتب والكراسات، أنا كنت بس عاوز أشوفها عشان أعرف مكانه ويجي لكم سالم إن شاء الله.

قالت بهية بعصبية: حاجة أخويا جابر أمانة لا يمكن أفرط فيها أبدا.

قلت موجها كلامي للشيخ أستنجد به: بس ياحاج ربما نجد في الكراسات الخيط اللي يوصلنا لجابر ويجي لكم بالسلامة.

قال الشيخ: لكن يابني كل حاجة ولها أصول، والولد غايب زي ما أنت عارف.

همس عبد الستار في أذني: هات ١٥٠ جنيه من جيبك.

أخرجت من جيبي المبلغ الذي طلبه، أمسك بمئة جنيه ووضعها في كف الرجل، ووضع الخمسين في كف بهية، وقال: كل سنة وأنتم طيبين.

دخلت بهية الحجرة دون أن تتكلم بكلمة واحدة ثم خرجت وفي يدها كيس كبير مملوء بالكتب والأوراق، وقالت: وعد أن ترجعوها تاني بعد ما تستقروها، وعدناها بذلك ثم أمسك عبد الستار الكيس وخرجنا.

لم أنم في الليلة التي حصلت فيها على هذا الكنز، فبعد أن تناولت عشائي دخلت حجرة مكتبي في بيتي، وبدات افتح الكيس وأنفض ما علق به من تراب، ثم أخرج محتوياته بحرص.

وبدأت بأجندة قديمة يتبين من الأحداث الواردة في الصفحات الداخليه فيها أنه لم يكتب كل مقالة حسب التواريخ المطبوعة، بل كان يستخدم الأجنده باعتبارها مجرد كراسة يسجل فيها خواطره بلا نظام.

ﮔﮔﮔ

١ من يناير ٠٠٠٠٠

في زمان النكد وسوء الطالع تختلط الأمور، ويصيب التشويش كل مظاهر الحياة، وتنسب الأفضال لغير أصحابها، وتفسد اللغة فتدل الكلمات على نقيض ما وضعت له، فالناس في هذا الزمان يصفون اللص إذا كان كبيرا بأنه «أمين» والكذاب إذا كان صاحب سلطة بأنه «صادق»، والعبودية عندهم تسمى الحرية، والظلم اسمه العدل، والاستخراب أو الاستحمار اسمه استعمار، والدكتاتورية اسمها ديموقاطية، واستغلال الفقراء اسمه عطف وإحسان، والمفسدون اسمهم مصلحون. المظاهر تعبر عن نقيض البواطن، فالمرتشي يمسك مسبحة ويطلق لحيته ويحفر في رأسه زبيبة كأن الصلاة أكلت جبهته، والمزور يملأ مكتبه بآيات الذكر الحكيم، لكل هذه الأسباب حرصت على دراسة علم الاجتماع، لأدرس هذه الظاهرة الخبيثة وأفجر ثورة إصلاح في هذا المجتمع الفاسد.

وأنا أولى الناس بالقيام بهذا الدور، لأنني وقعت فريسة لهذا النفاق، وعانيت من هذا الظلم، فوالدي رجل فقير لكنه شريف، اضطرته ظروف الحياة إلي بيعي، نعم بيعي بدون مقابل، كان يحسب

أنه سوف يسعدني وينقذني من الجحيم الذي نعيش فيه، كان يرجو أن تكون فرصة لي للدخول إلى عالم النور تشبه فرصة زيد بن حارثة عندما فضل أن يكون عبدا عند الصادق الأمين على أن يكون حرا عند أهله، لكن الذي اشتراني كان فاسقا، استغلني أسوأ ما يستغل به إنسان كائنا حيا، عاملني كأنني حشرة، جعلني خادما لولده الغبي، وفي النهاية نجد الغبي البليد الكسول ينجح والمجتهد لا يدخل الامتحان ،لكن العيب ليس عيبه هو وحده، المنظومة الاجتماعية كلها فاسدة، نظام التعليم فاسد، نظام الصحة فاسد، نظام الإعلام فاسد، الحكم المحلي فاسد، القوانين لا تنفذ، النفوس فاسدة.

ﰁﰁﰁ

٨مايو٠٠٠٠٠

يظن الناس أني تفوقت في امتحان الثانوية العامة لأنني ذكي، وهذا غير صحيح بالمرة، ليس لأنني حقيقة غبي ولكن لأن الحقيقة المرة التي جعلتني أتفوق لا يعرفها الناس الناس وهي انني ذاكرت المنهج عدة مرات وجربت امتحان الثانوية قبل أن أدخله هذه المرة. وهذه لها قصة فعندما رمتني الأيام السوداء لأكون خادما ذليلا عند تاجر

الجثث، كان البك يسمح لي بحضور جميع الدروس الخصوصية لأكفأ المدرسين، وكان يحرص على أن تتاح لي فرصة طيبة للمذاكرة، كنت أظن أنها طيبة منه، لكن الحقيقة أنني كنت أنا الذي يذاكر وكان مروان هو الذي ينجح، كان رقم جلوس مروان دائما بجوار رقم جلوسي، كنت وأنا صغير أظنها مصادفة، فأرقام الجلوس ترتب ترتيبا أبجديا فأنا في حرف الجيم وهو في حرف الميم. ولم انتبه إلى ذلك إلا في وقت متأخر وبعد فوات الأوان.

كان البك يقول لي إنك سوف تتسلم ورقتين للإجابة، الأولى لا تكتب عليها اسمك وهي الورقة الأصلية والثانية اكتب عليها اسمك، وكنت أطيعه في كل ما يقول، أدخل اللجنة فأتسلم ورقة الإجابة وورقة الأسئلة فأجيب على جميع الأسئلة إجابة نموذجية، وقبل نهاية الوقت بقليل يأتي إلي الملاحظ ويأخذ ورقتي ويسلمها لمروان وآخذ أنا ورقة جديدة فإجيب فيها بقدر ما يتسع الوقت المتبقي، كان ذلك يحدث باستمرا، ودائما ما كان مروان يحصل على درجات عالية جدا وأنا أنجح مجرد نجاح.

تطور الأمر عندما وصلنا للثانوية العامة، تطورت معاملة البك لي

إلى الأحسن، وعاملني معاملة رقيقة، ومنحني نقودا سلمتها لوالـدي، أصر على أن أدخل مثل مروان القسم العلمي، فدخلته علي الرغم مـن رغبتـي في دخـول القسـم الأدبـي، كـان يحضـر لي المدرسـين الخصوصيين، ويهتم بمتابعتي أكثر من اهتمامه بابنـه مـروان، كانـت أسعد أيامي... لكنها فرحة لم تتم، جاءني قبل الامتحان، قال لي: اسمع ياجابر يابني، أنا أعرف ذكـاءك وحبـك لمـروان ووفـاءك لي، مـروان أصابته وعكة صحية شديدة ونقل إلى المستشفى والامتحان غدا، وأنا أتوسل إليك ان تساعدني، أنا سوف أكتب لـك اعتـذارا عـن دخـول الامتحان هذا العام، رأيت الدموع في عينيه فضعفت، قال لي حتى لـو تخرجت فهل سوف تحصـل عـلى عمـل؟ أنـت تـرى الخـريجين في الشوارع صايعين منذ سنوات، اعتبر ياسيدي هذه السـنة عنـدي، أنـا أعطيك راتبك كما لو كنت قد تخرجت، ثم قال: إنك لـن تـذهب إلى لجنة الامتحان الأصلية سـوف تـذهب إلى شـقة خاصـة، فيهـا عـدد محدود من أولاد الأعيان، وسوف أجيء لك بكل امتحـان في الليلـة السابقة عليـه، تـذاكر الامتحـان مـذاكرة جيـدة وتكتـب الإجابـة في ورقتك التي تسجل عليهـا اسـم مـروان، ثـم تمـلي الإجابـة لجميـع

اللجنة، وقد كان، لبست لأول مرة بدلة جديدة وركبت سيارة فارهة تنقلني كل يوم إلى الجيزة في عمارة ضخمة، وتنتظرني في العودة، انتفخت كأنني ابن الباشا الحقيقي.

لكن رأسي أصابها السعار عندما ظهرت النتيجة.. مروان نجح هو وجميع أولاد الذوات بتفوق دخلوا كلهم كليات الطب، وابن عبد السلام الفقي باق للإعادة بعذر مقبول، بكيت وبكى والدي عندما عرف النتيجة، دخل مروان كلية الطب وسوف يتخرج لا ليعالج الناس ولكن ربما ليساعد والده في الاتجار بأجسادهم.

لقد شاركت في الجريمة وأستحق عليها العقاب، سوف أصلي لله وأصوم وألزم بيته لعله يغفر لي.

﴿﴿﴿

٣ يناير ٢٠٠٠

يعطي الله نعمة العقل للناس فيشكروه، وشكرهم له يتمثل في استخدامهم له في الخير، أما أنا فأعطاني الله العقل فاستخدمته في الشر، ولذلك فإنني لو قتلت نفسي في التعبد والاستغفار فسوف أظل أشعر بأن الله ما زال غاضبا علي، والجريمة التي ارتكبتها بشعة، لقد

عاونت مروان القرموطي وكل من علـى شـاكلته في الاتجـار بالبشـر، ليس في تجارة أجساد الموتى هذه المرة بل في الاتجار بالأحياء، وهذا أشد فظاعة فأكل جسد الميت أقل بشاعة من أكل أجساد الناس وهم أحياء، والحكاية أن مروان القرموطي كان مرشحا لمجلس الشـعب، وكان يعرف أن الجميع يكرهونه ولـن يعطـوه أصـواتهم مهمـا فعـل معهم، فكـان يـريح نفسـه فيشـتري العضـوية مـن فـوق، فتقفـل لـه الصـناديق بالشـكل المعتـاد، لكـن حـدثت مشـكلة فى الانتخابـات الأخيرة، ظهر منافس قوي، هو الحاج عمران السباك تاجر في الصنف من الباطنية، دفع عمـران كمـا دفـع مـروان، فتـرك الأمـر لأول مـرة للأصــوات، وبــدأت المزايــدة عــلى ثمــن الصــوت في المقــابر والمجاورين ومقاطيع الحسين، وصل الصوت إلى عشـرة جنيهـات، المشكلة نشأت من فقدان الثقة في الناخبين أنفسهم فقد يأخذ الواحد منهم عشرة الجنيهات ولا يصوت لمن أعطاها له، وقد يأخذ من هذا ومن ذاك ولا يصوت أصلا، بعض المرشحين يحلف النـاخبين عـلى المصحف وعلى الإنجيل لكـنم لا يبـرون بقسـمهم، هـذه المشـكلة جعلت عملية شراء الأصوات بلا فائدة في ظل فساد الذمم، المهم أنـا

تدخلت لدي البك بعقلي المظلم، وحللت له المشكلة، فكانت سببا في نجاحه بتفوق، بل أصبحت فكرتي اختراعا وسنة سيئة أتحمل وزرها ووزر من عمل بها إلي يوم الدين.

قلت يومها للبك المشكلة بسيطة جدا وحلها أسهل مما تتوقع.

قال: كيف؟

قلت: هل تستطيع الحصول على ورقة انتخاب فارغة قبل بدء اللجنة؟ ورقة واحدة ولو مزورة

قال سهلة، وماذا سوف تفعل بهذه الورقة؟ أنا يمكن أن آتي لك بألف ورقة

أعط هذه الورقة وهي جاهزة أي مسودة لصالحك لأول ناخب يريد الذهاب إلى صندوق الاقتراع، وقل له: ضع هذه الورقة في الصندوق وراء الستارة وهات الورقة الفارغة وأعطيك عشرة حنبهات، يفعل ذلك، يسلمك الورقة الفارغة ويستلم الجنيهات العشرة، تأخذها وتسودها وتسلمها لناخب آخر، وهكذا، وكل ما سوف تفعله هو مندوب واحد يجلس في ناحية ما بالقرب من اللجنة المراد شراءها، وبهذه الطريقة تضمن فلوسك وتعرف عدد الأصوات

أولا بأول، ولا يمكن أن يحتسب تزوير، ولا يستطيع أحد منعه حتى لو جاءت الأمم المتحدة نفسها.

يومها قال لي: أنت شيطان، وحتى لو احتسب تزوير ياسيدي هل هناك عقوبة محددة في القانون لمن يزور في الانتخابات؟

لقد سهلت له بيع الناس الفقراء المحتاجين، وخنت بلدي.

൫൫൫

تركت الأجندة وأخذت أقلب في الكراسات فلم أجد فيها سوى ملخصات في الفيزياء والاجتماع وعلم النفس والرياضيات ثم هناك رسالة واحدة في مظروف هي ورقة صغيرة مكتوب عليها بخط بناتي:

انتظرتك أنا وبابا وماما حسب الميعاد لكنك كعادتك طلعت ندل، مشكلتك ياجابر ليست الفقر كما تدعي فالفقر في ذاته ليس مشكلة بل مشكلتك أنك مريض بفقدان الروح أنصحك أن تذهب إلى طبيب نفساني أو جراح يزرع لك روحا جديدة إن كان الطب قد توصل إلى زراعة هذا العضو للذين فقدوا أرواحهم مثلك ولا أريد أن أراك مرة أخرى..... م. ص.

أخذت أخمن من تكون صاحبة الرسالة؟ مها صبري؟ مي صابر؟

ميادة صادق؟ مروة صبحي؟ لا يمكن ان تكون فاطمة الزهراء!!

قلت لنفسي لا بد من العـودة إلى الـدكتورة فاطمـة الزهـراء فهـي المفتاح الوحيد الذي يمكن أن يوصل للهدف. اتصلت بها طمأنتها بأنني لن أفشي سرها مهما كانت الظروف، قالت إنهما كانا على علاقة عاطفية لكنها انقطعت قبـل زواجهـا وأنهـا لا تعلـم عنـه شـيئا وكـل رسائله قد أحرقتها ما عدا ثلاثة رسـائل تركتهـا عنـد أمهـا في حقيبـة ملابسها القديمة.

استطعت الحصول عليها وهي:

عزيزتي فطومة..

....

....

قد تسألينني لماذا سوف أعود؟

خبر صغير تناقلته وكالات الأنباء العالمية من صعيد مصر، كان له وقع الصاعقة هنا في الدوائر العلمية في جامعة هارفارد، ملخص هذا الخبر أن فتاة في السادسة عشرة من عمرها قد اختفت في جنوب

الصعيد ولم يعثر لجثتها على أثر وأنها قبل اختفائها كانت تظهر لها أشباح لبعض الموتى.

والذي أثار اهتمام الباحثين في مركز البحوث الاجتماعية في هارفارد ليس واقعة الاختفاء في ذاتها، ولا ظاهرة رؤية الأشباح التي ربطتها بعض الدوائر العلمية بظاهرة الأطباق الطائرة في سيبريا وإنما الذي اثار اهتمامهم بل انزعاجهم أن غالبية الشعب المصري أصبحت تصدق تصديقا جازما أن هذه الظاهرة حقيقية اعتقادا منهم أنها واحدة من كرامات الأولياء، وأن الذي أختطف هذه الفتاة على وجه التحديد شيخ ميت له مقام يحج إليه الناس في جنوب الصعيد يسمى «عبد الجبار العتريس»

الدوائر العلمية الاجتماعية هنا تنظر إلى هذه الظاهرة من زاويتين:

الأولى على أنها نوع من الارتداد الحضاري ربما يؤدي إلى كارثة اجتماعية عالمية أشد خطرا من القنابل النووية، فمن المعروف أن جنوب الصعيد كان هو المنبع الذي شع منه نور الحضارة على العالم كله، وليس من المستبعد أن يكون أيضا هو المنبع الذي تطوى منه هذه الحضارة، حسب النظرية الدائرية لقيام الحضارات وخمودها،

وسوف يؤدي انتشار هذه الظاهرة لو لم تعالج إلى العودة مرة أخرى بالبشرية كلها إلى الوراء مرحلة بعد مرحلة، وحلقة حضارية بعد حلقة، حتي نصل ألى العصر الذي كان المصريون يضحون فيه بفتياتهم للنيل، ثم العصر الذي قبله، وإذا صدقت نظرية دارون فسوف تعود البشرية إلى أبعد من ذلك بكثير.

الزاوية الثانية أن هذه البيئة تعد المجال الخصب للأبحاث التي تجريها المؤسسات السياسية لاكتشاف علم جديد يمكن به السيطرة على الشعوب المارقة وتوجيهها أي التحكم في خريطة الجينات الوراثية حتى يمكن اكتشاف الجين المسئول عن الذكاء المفرط والجين المسئول عن الغباء المفرط عند ذلك يمكن قيادة الشعوب المتخلفة إلى مافيه خير البشرية ويمكن بذلك أيضا القضاء على بذور الظواهر الإرهابية.

لم يكن في مركز البحوث الاجتماعية بهارفارد من هو أكفأ مني في هذا المجال، ومن ثم وقع على الاختيار لدراسة هذه الظاهرة، لم يكن أمامي خيار وأنا الآن أحزم أمتعتي بهدف العودة إلى مصر.

جزء من رسالة أخري بدون تاريخ

عزيزتي ....

....

نزلت من القطار القادم من القاهرة في الساعة الواحدة ليلا في مدينة البلينا، كما وصف لي، بعد الساعة الثانية عشرة تكاد مدينة البلينا تكون خالية إلا من سائقي عربات الحنطور والتاكسي والشحاذين، وقفت أمام المحطة أسأل أحد السائقين عن وسيلة مواصلات إلى مقام العتريس عندما نطقت باسم العتريس تمتم الرجل في سره كأنه يتلو شيئا ثم أحنى رأسه ورفع كفه إلى جبهته حتى غطى وجهه بكم بجلبابه القذر الفضفاض، ثم ربت بها على صدره كما يفعل المسيحيون عند الصلاة، ثم قبل كفه مرتين أو ثلاثا، ثم قال تقصد: ساكن البر الشرقي منحنا الله من بركاته وكفانا شر حركاته؟

قلت في نفسي هذه أول ملاحظة ينبغي علي أن أسجلها في بحثي، فقد كان قدماء المصريين يعظمون ألهتهم إلى درجة أنهم كانوا ينزهونها عن التلفظ بأسمائها صراحة فكانوا يقولون مثلا ساكن البر الشرقي أو ساكن البر الغربي أو ساكن الجبال، كما يفعل هذا الرجل

الصعيدي تماما، إنها الثقافة المصرية الأصيلة تناقلتها الأجيال منذ القدم جيلا عن جيل، وهذا يثبت صدق نظرية جوستاف لوبون التي يري فيها أن الحضارات لا تموت، وإنما تكمن في العقل الجمعي لأفراد الشعب فإذا أتيحت لها البيئة المناسبة انتعشت مرة أخرى واستعادت نشاطها، وربما أخرج من ذلك بنظرية جديدة تهدم نظرية الارتداد الحضاري التي تتبناها جامعة هارفارد.

انتبهت إلى وجود اثنين بيننا، أحدهما شاب نحيل في الثلاثينيات من عمره يبدو أنه قاهري أو اسكندراني يلبس قميصا وبنطلونا والثاني في الخمسينيات بلبس جلابية صعيدية لكنه مكشوف الرأس بلا عمامة، لم انتبه من الحوار الذي دار بينهم إلا قوله: الوصول إليه الآن صعب، لأنه شرقي النيل والمعدية لا تعمل بعد العاشرة مساء، فهمت أنهما يريدان الذهاب إلى مقام الشيخ مثلي.

قلت: هل هنا فنادق يمكن أن ننزل فيها حتى الصباح؟

قال السائق: ولماذا تغرمون أجرة الفندق، مادمتم ثلاثة انا أوصلكم إلى مكان المعدية على شاطئ النيل وتأخذون مركبا شراعيا مخصوصا للبر الشرقي، وعندما تصلون يكون الصبح قد صبح، ولا

فندق ولا يحزنزن.

سلمنا أنفسنا للسائق، وسلمنا السائق لصاحب المركب أو باعنا له بعد أن أخذ نصيبه من الصفقة، وكانت رحلة نيلية ليلية تشبه الرحلة في مركب «شارون» إلى العالم الآخر في مسرحية أرستوفانيس الشهيرة «الضفادع» ونجونا بسلام ألى الشاطئ الشرقي، عالم آخر.

علي غير ما توقعنا فقد وجدنا على الشاطئ الشرقي حياة من نوع ما، ناس كثيرون ربما يتجاوز عددهم الأربعين يجلسون على الأرض يدخنون الجوزة (الشيشة) ويشربون الشاي ويضحكون، قدموا لنا أكوابا من الشاي، لم يكن في وسعنا أن نرفض، عرفنا منهم معالم الطريق.

- ساعة واحدة ناحية الشرق، لا يمين ولا يسار، لن تتوهوا، ألف واحد سوف يدلكم على ساكن الجبل الشرقي، ربما تصلون هناك قبل طلوع الشمس، الطريق آمن على بركة الله.

لا أدري لماذا قهقه جميع الجالسين مرة واحدة عندما سألتهم: هل هناك خطورة من عصابات ذئاب الجبل أقصد عصابات قطاع الطرق؟

قال رجل منهم سكت له الجميع عندما شرع في الحديث: يا ولدي ساكن الجبل الشرقي له حمى، وكلنا في جواره، ومن يجرؤ على التخريب في حماه لا ينجو من لعنته، اذهبوا وادعوا لنا عنده، إنكم طيبون وسوف يستجيب لكم.

بعد أن قطعنا مسافة من الطريق الذي وصف لنا قال الشاب القاهري بصوت مبحوح ربما من الغيظ أو من الإرهاق والسهر: لقد كان سائق التاكسي مستغلا، أخذ منا أكثر مما كنا سندفعة إلى الفندق.

قلت: ما كانت المسافة بين المحطة والنيل تحتاج إلى تاكسي، لكن الغريب أعمى.

قال الفلاح: تكفي صحبتكم الطيبة. ثم تابع قائلا:

احمدوا ربكم، الفلوس تأتي وتروح، لا شيء يساوي الصحة، كان في بلدنا رجل مريض صرف حوالي عشرين ألف جنية على الدكاترة بدون فائدة لكن بعد أن جاء إلى مقام سيدي العتريس أصبح مثل الحصان، كان لابسه بسم الله الرحمن الرحيم.. عفريت، .. واحدة ثانية من بلدنا كانت لا تنجب..

قاطعه الشاب: حضرتك من الصعيد؟

قال: أنا من سنورس من الفيوم يعني، وجاي علشان أتعالج، عشان أخلف، لفيت على دكاترة مصر من اسكندرية لأسوان عشان أخلف حتة ولد ولا بنت، و تزوجت أربع مرات وبرضه مفيش فايدة، وقالوا لي مافيش غير سيدك العتريس سره باتع.... وحضرتك عندك مرض برضه؟

قال الشاب: لا.. أنا صحفي وناوي اكتب سلسلة من التقارير عن كرامات الأولياء، وأبدأها بتقرير عن كرامات العتريس.

بادرت بالقول –حتى لا يواجهني الرجل باسئلته المباشرة –: الدنيا كلها مشاكل، وكل واحد في هذه الدنيا يسعى لأمور تخصه، سبحان مدبر الكون.

لكن حيلتي لم تفلح في صد فضوله فقال:

- وحضرتك؟؟

لم أجد مفرا من الإجابة، لكنني تذكرت نصيحة أستاذي الأمريكي بأن لا أبوح بحقيقة المهمة التي أقوم بها خوفا علي، قال لي قبل أن أغادر مكتبه بالجامعة: إن الناس في مصر وفي العالم الثالث لا يخافون من شيء كما يخافون من البحث العلمي ،ثم قال باسما: إن البحث

العلمي فضاح وهم يحبون الستر. قلت: الأولى أن يخافوا من الصحافة. قال لا: الصحافة عندكم أصبحت سلعة مثل شعركم القديم، قصائد في المدح و قصائد في الهجاء، يستخدمها من يملك الثمن. فهي ليست صحافة هي نوع من الدعاية والإعلان.

شعرت أنني تأخرت في الرد على الرجل فقلت:

- مدرس.

كان في نيتي منذ البداية أن أستخدم مهنة (مدرس) لأسباب عديده، منها أن المدرسين لا يستغرب وجودهم في أي مكان، كما أنني إذا قلت إنني مدرس فلن أكون كاذبا فأنا مدرس في الجامعة، يعني مدرس بالمفهوم العام، و لو وقعت في مشكلة تستدعي أي مساءلة قانونية لا أتهم بانتحال صفة غير صفتي، فمهنتي في البطاقة الشخصية مازالت «مدرس-مساعد»، بالإضافة إلى أن مهنة مدرس هذه تسمح بحرية الحركة، فلو اضطررت لأن أمارس مهنة مدرس تاريخ أكون مدرس تاريخ، مدرس إنجليزي أدرس إنجليزي، مدرس عربي أدرس عربي، سبع صنايع والبخت ضايع.

اقتربنا من مقام سيدي عبد الجبارالعتريس أو ساكن الجبل

الشرقي كما يطلقون عليه هنا أو ساكن البر الشرقي كما يطلقون عليه في الغرب، أصوات مخيفة خافتة متقطعة متداخلة كأنها غرغرات مئات من السكارى، أصوات باهتة ملتفة بالوهم المقدس، ترن أصداؤها في أذنيك حتي بعد انتهائها في موجات متلاشية، كأنك تسمعها في حلم، أوفي لوحة سريالية في زمان سحيق لا تذكر أين أو متى، صوت إنساني كانين الناي أوله متماسك متعرج مستقيم متهافت لكن آخره كالخيط الرفيع، يخيل إليك كأنه خائف أومستغيث، أو نداء العقل الباطن عندما تتلبس به غلالات الفجر، نقيق هزيل من ضفدعة كأنها تتثاءب، هرير مستطيل من كلب أجرب في مكان بعيد، نسمات الفجر تداعب أطراف الزروع وتوشوش النخيل الممتدة على جانبي الطريق السحري، لا نجوم في السماء ولا قمر، ولا سحب، ظلام أغبش تتخللة غلالات بنفسجية تبدد الوحشة فوق الجبل الشرقي، تشبه الشفق عند الغروب، طريق ترابي ضيق طويل طويل يشبه طريق الكباش في معبد الأقصر، جو جاف مترب، لا برودة ولا حرارة، تحس برهبة للمكان كالتي تشعر بها عند دخولك المقابر ليلا.

لم أر من قبل منظرا مثل هذا المشهد الذي رأيته في الساحة الكبيرة لمقر الشيخ العتريس، رغم أنني زرت كثيرا من أضرحة المشايخ والأولياء في مصر، الأحياء منهم و الأموات، لم يكن ضريحا مثل ضريح السيد البدوي أو ضريح الحسين أو السيدة نفيسة أو ساحة الشرقاوي، بل كان مقاطعة أوكما يسميها مريدوه "ولاية"، ولاية من نوع خاص، فكل ولي من أولياء الله الصالحين –كما يقولون –لا بد أن تكون له ولاية في الدنيا، ثم عرفت فيما بعد أن هذا المكان الذي نحن قادمون للدخول فيه ليس إلا عاصمة هذه الولاية فقط، أما باقي أرجاء الولاية فلا تكاد تحدها حدود مكانية، لأن مكانها في قلوب الناس وعقولهم، فأتباع الرجل ومريدوه ينتشرون من الإسكندرية حتى الشلال، بل ربما يتجاوز سلطانه حدود مصر إلى الدول المجاورة، فله ممثلون في كل الدول العربية تقريبا: سوريا والسعودية واليمن والسودان والأردن والصومال وليبيا...... الخ.

وصلنا البوابة التي في مدخل العاصمة قبيل طلوع الشمس، بوابة كبيرة بعرض الطريق، تشبه بوابات تحصيل الرسوم على الطرق السريعة، أو البوابات التي في مدخل مطار القاهرة الدولي، ولها

متراس مثلها يسد الطريق كله، ورجال واقفون على جانبي البوابة، كأنهم حراس، لكنهم كبار في السن ذوو لحى بيضاء وملابسهم قديمة ومرقعة لكنها نظيفة، استوقفونا، لم يسألونا عن شيء، فقط فتح واحد منهم دفترا كان على منضدة صغيرة وسجل: العدد=٣ رجال الساعة الأولى من صباح يوم الإثنين غرةربيع الآخر عام١٤٣٢ه.

بعد البوابة وجدنا أنفسنا في ساحة تمتد على مرمى البصر مغروسة بالرجال والنساء والأطفال آلاف من خلق الله كأننا في ميدان من ميادين القاهرة المزدحمة ولكن بلا ضجيج، البعض يجلس في حلقات تحت الشجر يتناول إفطاره في صمت، البعض نائم تحت شجرة أخرى، وآخرون يمسكون بالمقشات وصناديق القمامة ينظفون الطرقات صامتين، وآخرون يسقون الأشجار، رجلان يحملان بينهما مريضا تخط رجلاه في الأرض، وآخران يلفان امرأة في عباءة، يبدو أنها مصابة في عقلها، خلق كثير هنا وهناك، لم نلمح أية مبان أو أسوار سوى بعض الحجرات الصغيرة المتناثرة هنا وهناك عرفنا من شكلها أنها دورات للمياه، فقط شجر وبشر في كل مكان.

شعرت وسط هذا الحشد بوحشة لم أشعر بمثلها عندما نزلت من

الطائرة للمرة الأولى في أمريكا التي تبعد عن بلدي آلاف الكيلو مترات، ويتحدث أهلها لغة غير لغتي ويدينون بغير ديانتي، ولعل رفيقي اللذين قدما معي ولم يتركاني قد شعرا بمثل ما شعرت به، فاقتربا مني أكثر، صرت أنا وهما كالأسرة الواحدة رغم أننا لم نتقابل سوى أمس، نظر بعضنا إلى بعض، فهم كل منا الرسالة، التعب والجوع، جلسنا تحت شجرة ، بعد قليل جاءنا رجل يلبس جلبابا مرقعا ومعه ثلاثة صناديق ورقية، أعطي كل واحد منا صندوقا، طعام الإفطار، كيف عرفنا هذا الرجل وسط هذا الجمع الغفير؟ قبل أن اتفوه بكلمه صاح الرجل: «وحد الله» ومد صوته بكلمة الله كأنها تخرج من قلبه لا من لسانه، أكلنا سندوتشات الفول والجبنة وشربنا علب العصير التي كانت في الصناديق.

ما كان يقلقني هو كيف سأحصل على المعلومات الكافية لبحثي؟ وإذا حصلت عليها فكيف أستطيع الكتابة وسط هذا السوق؟ وإذا استطعت فكيف سأحافظ على سرية ما أكتب مع وجود هذين الرفيقين اللذين يبدو أنهما قد التصقا بي ولا يمكن الفكاك منهما؟

كنت قد وضعت لبحثي خطة وافق عليها أستاذي تقوم على أن يتم

البحث على ثلاث مراحل المرحلة الأولى جمع المصادر والمعلومات وتتم هذه المرحلة في موقع البحث أي هنا في ساحة العتريس، المرحلة الثانية تنظيم المصادر ونقدها وتتم في القاهرة أما المرحلة الثالثة والأخيرة فهي بناء البحث في صورته النهائية وسوف تكون في هارفارد بالولايات المتحدة.

أما تبويب الفصول والموضوعات فقد وضعنا له بعض المحاور الأولية القابلة للتعديل حسب نوع المعلومات وحجمها، وكانت هذه المحاور عبارة عن أسئلة عامة من قبيل: من هو عبد الجليل العتريس؟ وكيف استطاع أن يسيطر على عقول هذا العدد الكبير من الناس ويحولهم إلى أتباع ومريدين له؟ فقد درس العلماء معمليا أسرار العبقرية العلمية لأينشتين، وعبقرية القيادة العسكرية لنابليون والدهاء السياسي لديجول لكنهم وقفوا حائرين أمام هذه الظاهرة الغريبة في العالم العربي، وهي أن يكون هناك رجل جاهل علميا ومتوسط الذكاء عقليا وربما يكون في كثير من الأحيان مجذوبا لا يعي ما يفعل ثم يلتف حوله الناس ويأتمرون بأمره ويعدونه ملهما فكل إشارة من يده تنم – كما يعتقدون – عن حكمة خفية، وكل جملة

مفيدة أو غير مفيدة تصدر من فمه تصبح - لديهم - منهجا وتوجيها سديدا لا يتطرق إليه الزلل.

ولذلك لم أصطحب معي مراجع فلست في حاجة إليها في هذه المرحلة، كل ماسوف أحتاجه هو عدد من بطاقات البحث الملونة وعدد من الأقلام بالإضافة إلى كراسة سجلت فيها بعض المعلومات التاريخية والجغرافية للمنطقة، وهذا ما خفف حجم حقيبتي، وسهل حريتي في التنقل من مكان لآخر.

أول شيء فكرت فيه هو التحرر من رفيقي اللذين أصبحا بالنسبة لي عبئا وبخاصة الفلاح الفيومي لأنه فضولي كثير الأسئلة، ثم بعد ذلك أتجول في المكان لكي أرسم له في رأسي خريطة أستطيع بعدها أن أحدد معالمه وبعدها أقرر ما ينبغي فعله، انتهزت فرصة انشغال الناس بالتأهب للوضوء لصلاة الظهر فأخذت حقيبتي وقررت أن أسير في اتجاه مستقيم ناحية الشرق حتى أعرف نهاية هذه الساحة الكبيرة إن كان لها نهاية، وبعد ذلك أقطعها من ناحية الجنوب والشمال، وفعلا سرت في خط مستقيم نحو الشرق، صليت الظهر في الطريق، وتناولت الغداء مع مجموعة كانت تجلس تحت شجرة،

نظام الغذاء يشبه النظم الغذائية في القوات المسلحة، كل يوم نوع معين من الطعام ياكل منه الجميع، كانت وجبة اليوم من العدس الأصفر والخبز ، واصلت السير نحو الشرق عند صلاة العصر وصلت إلى الحدود الشرقية، لم يكن هناك سور بل هو الجبل الشرقي، سلاسل جيلية شاهقة نحو الشمال الشرقي، وهضاب ترابية نحو الجنوب الشرقي.

أحسست بأن محاولاتي الذاتية للاكتشاف محاولات عقيمة، وأنها تستغرق وقتا طويلا، قررت أن أسأل واحدا من الناس لكن بحذر، انتقيت رجلا من الذين يقومون بخدمة الناس، فلا بد أنه من المتمرسين بالمكان، قلت له بعد أن ألقيت عليه السلام:

- لو سمحت، هل حضرتك من العاملين في الساحة العتريسية؟؟ (هكذا أسمعهم يطلقون عليه). ابتسم الرجل وقال:
- يبدو أن حضرتك غريب، ليس في الساحة العتريسة عمال ولا موظفون، كل الذين يخدمون هنا متطوعون، وكل الطعام الذي يقدم هنا من أهل الخير، كله من عند الله وفي سبيل الله.

قلت:

- أنا رجل غريب كما عرفت وأريد أن أقابل الشيخ.
- أي شيخ؟ فالمشايخ هنا كثيرون.
- أريد أن أقابل الشيخ العتريس أقصد سيدي عبد الجبار العتريس.

تبسم الرجل كأنه يشفق علي من شدة جهلي أو سذاجتي، وقال:

- سيدي العتريس مرة واحدة؟!! هنا ناس لهم أكثر من سنة كاملة ونفسهم يشوفوه بس ولو مجرد شوف بعنيهم.

قلت:

- وما ذا أفعل كي أقابله، فأنا رجل محب وأريد أن أتبارك برؤيته وأكون من مريديه.

قال:

- هذا أمر يتعلق بالصدفة والحظ، اتنتظر حتى يأتي نصيبك.

أشار بيده نحو الشمال الغربي وقال:

- يمكنك أن تراه في أي مكان.

كانت الشمس تؤذن بالمغيب فلم يكن هناك مفر من أن أبيت في المكان الذي أنا فيه، بعد العشاء استلمت بطانية وتخيرت مكانا مناسبا ووضعت حقيبتي تحت رأسي ونمت.

في اليوم التالي قررت أن أواصل رحلة الاكتشاف الذاتي للمنطقة، سرت هذه المرة نحو الجنوب، ومررت على جماعات تشبه الجماعات التي رايتها بالأمس، واصلت السير حتى وجدت بوابة تشبه البوابة التي دخلت منها بالأمس أول مرة، ووجدت حراسا مثل حراس الأمس، أوقفوني ثم فتح واحد منهم دفتره وسجل: (-١ رجل).

أمام البوابة طريق واسع ممهد في نهايته كتلة مستديرة من المباني المتربة، مرتفعة في الوسط تشبه القبة أو الجمجمة تغطيها فروة من النخيل الكثيف الداكن الخضرة المغبرة. قرية صغيرة نصفها في الصحراء والنصف الآخر في الأرض الزراعية، كلما اقتربت منها تبينت معالمها، بدت على هيئة تمساح كبير راسه في الأرض الزراعية حيث البيوت الإسمنتية الراقية الصلعاء ويمتد ذيله في الصحراء تتدرج فيه البيوت في الانخفاض والصناعة حتى تنتهي بالأكواخ

الصغيرة المصنوعة من الطين والصفيح، يعلوها زغب من النخيل العجفاء.

عطفت تلقائيا نحو مساكن الفقراء ناحية الجبل، التعامل مع الناس البسطاء أسهل، في مدخل القرية دكان صغير، عبارة عن كوخ لا تزيد مساحته عن ١٢ مترا مربعا، أمامه ساحة مستطيلة تبلغ ضعف مساحة الدكان، لكن من غير حوائط، هي عبارة عن ستة أعمدة من جذوع النخيل وسقف من سيقان الذرة الجافة المحبوكة، وعلى جانبي المستطيل مصطبتان ممتدتان من أول الصالة إلى آخرها، مفروش عليهما حصر مصنوعة من نباتات الحلفا، استقبلتني رائحة التبغ المعسل قبل أن أصل إلى المكان، أربعة رجال يجلسون على المصاطب ثلاثة يتناوبون الشيشة يدخنون، والرابع يدخن سيجارة، ورجل في داخل الكوخ يبدو أنه صاحب الدكان، الجميع يلبسون ملابس متشابهة، جلابية واسعة الأكمام والجيوب وعمامة بيضاء ملفوفة على الرأس، صاحب السيجارة فقط كان حاسر الرأس، كانت ثيابة أنظف وتقاطيع وجهه ألطف، ألقيت السلام فردوا جميعا في صوت واحد:

- تفضل.

جلست علي الصطبة بجوارهم، بعد دقائق من الصمت خرج صاحب الدكان ومعه صينية من النحاس الأصفر وعليها عدد من أكواب الشاي الأسود، بدأ بي.

- تفضل.
- شكرا.

الجميع في صوت واحد:

- تفضل، تفضل والله لانت شارب، انت ضيفنا، تفضل.

أخذت الكوب وشربت.

قال لي واحد من الجالسين بعد أن نفث ما في جوفه من دخان وسلم الراية لجار له:

- حضرتك جاي لحد في العزبة؟ قصدي أي خدمة ممكن نتشرف بتقديمها لحضرتك؟

قلت:

- شكرا أنا بس كنت في زيارة للساحة العتريسة وحبيت أجاور سيدي العتريس حتى تمسني بركاته.

قال صاحب السيجارة.

- كلنا في حمى الشيخ ونلتمس بركاته، ولولا المعايش ومتطلبات الحياة لعشنا هناك في الساحة طول عمرنا ننعم بالعبادة وطمأنينة النفس.

أحسست من كلام الرجل أنه يتعجب أنني إذا كنت فعلا أطلب بركات الشيخ فلماذا خرجت من الساحة؟

قلت:

- والله أنا على باب الله، وانتو عارفين أن مفيش الأيام دي وظايف، قلت أسافر الصعيد وزور مقام الشيخ عتريس وأدعو وأتوسل إلى الله أن يكرمني ويفتح لي أبواب رزقه.
- وسيادتك جاي منين؟
- من مصر.

قال صاحب السيجارة:

- وحضرتك عاوز تشتغل إيه؟
- اشتغل مدرس إنجليزي
- زين، زين قوي.

قلت: – يعني إيه.

قال: – يعني خير إن شاء الله. أنت تتفضل معي النهار ده، أنت ضيفي وإن شاء ربنا يفرجها.

في الطريق إلى بيته عرفت أن اسمه محمد المغربي وأنه مدرس ابتدائي، كان متوسط القامة نحيلا لم اتبين نحوله عندما كان جالسا مع رفاقه، كان لطيفا حسن المقابلة، قال لي ليخفف عني ما ظن أنني أعانيه من غربة وسوء حال:

- أهل هذا البلد طيبون يرحبون بالغريب وإذا لمسوا منه طيبة اعتبروه واحدا منهم.

ثم ضرب لي مثلا بأسرته هو، فجده الثالث– كما قال – لم يكن صعيديا ولا مصريا، بل كان من المغرب، كان في طريقه للحج هو وأسرته المكونة من زوجته و بنتين وولد ، وعندما وصل هذا الجد إلى قرية (لمبير) هكذا كان اسمها قبل أن تسمى باسمها الحالي (عزبة عتريس) مرضت زوجته فتأخر عن قافلة الحجيج، وبعد عدة أشهر ماتت الزوجة فاضطر أن يعمل محفظا للقرآن وإماما للمسجد، وزوج بنتيه من أعيان القرية وتزوج هو من

القرية وكذلك ولده وهكذا أصبحت عائلة المغربي من أكبر العائلات.

قلت: - لكنني لست ذاهبا للحج مثل جدك، ولا أصلح أن أكون محفظا للقرآن ولا أن أكون إماما للمسجد، أنا على باب الله.

قال: كل ميسر لما خلق له، لو أن الناس جميعا أطباء أو نجارين او حدادين لخربت الدنيا، كل واحد له وظيفة في الحياة.

مررنا في أزقة ضيقة تجاه الغرب، مبان من الطين من دور واحد، مسقوفة بالقش وعيدان الذرة الرفيعة وعيدان القطن، ثم مبان من الطوب اللبن مسقوفة بجريد النخل المنكس بالطين، وأخيرا وصلنا إلى بداية المباني ذات الأعمدة والسقوف الخراسانية، وأخيرا وقفنا أمام باب بيت صغير من طابقين، لم يطرق محمد المغربي الباب، بل فتحه بمفتاح كان في جيبه، قلت له: - تعيش وحدك في هذا البيت؟

قال: - لا... معي أمي.. وهي كبيرة في السن. ولا أحب أن أزعجها بالنزول والصعود.

البيت مكون من فناء صغير به نخلة عالية ثم باب داخلي صعدنا له ثلاثة سلالم، صالة مستطيلة على جانبها الأيمن غرفة بطول الصالة لها

بابان وعلى اليسار غرفة صغيرة بجوارها سلم، أشـار لي بالـدخول إلى الغرفة الكبيرة، جوانب الحجـرة الأربعـة محاطـة بالكتـب البلـدي، وكلها مفروشة بمراتب وأغطية ومساند بيضاء نظيفة.

تركني وخرج، ثم جاء بعد دقـائق ومعـه إبريـق نحاسـي وطسـت صغير وعلى كتفه فوطة جديدة، جلس القرفصـاء عـلى الأرض وقـال تفضل اغسل يديك جلست أمامه مثلما جلس ومددت يـدي وصـب عليهما الماء من الإبريق ونـاولني الفوطـة، وأشـار إلي بـالخروج، في الصالة وجدت صينية على منضدة في الصالة عليها طعام ساخن.

لم تطل إقامتي في منزل الأستاذ محمد المغربي، فقد غمرني الرجل بكرمه وأسـرني بحسـن أخلاقـه، كـان معـي كريمـا إلى درجـة تـدفع للخجل، وجدت فيه سماحة لم أرهـا مـن قبـل في سـكان القـاهرة أو المدن التي عشت فيهـا، كـان شـديد الاهتمـام بـي وبراحتـي، أخـذ ملابسي رغما عني وأرسلها فجـاءت نظيفـة، كـان يتعهـدني بالطعـام والشراب كأنني ابن له أو صديق قديم، إنني لو لم أكسب شيئا من هذه الرحلة سوى صداقة هذا الرجل فسوف أعد نفسي رابحا.

بعد يومين أو ثلاثة استطعت بمساعدة محمد المغربي أن أستأجر

بيتا قريبا من المدرسة الابتدائية، بيت صغير من طـابق واحـد مكـون من حجرتين وصالة في مدخله فناء صغير فيه نخلة أيضا مثـل النخلـة التي في فناء بيت المغربي، كان صاحب هذا المنزل- كمـا علمـت - قد أعده ليؤجره للمدرسين المغتربين، وضعت حقيبتي على السـرير، اكتشفت أنه مصنوع مـن جريـد النخيـل، بالطريقـة التـي تصـنع بهـا أقفـاص الفاكهـة، وكـذلك الكراسـي والمنضـدة، تبسـمت «كـان المفترض أن يكتب عليها Made in Egypt » وعندما دخلت المطبخ اكتشفت أن معظم أدواته صناعة محلية أيضا مـن الطـين المحـروق، البيت به كهرباء لكن مصدر المياه كان طلمبة مياه يدوية تعتمـد عـلى المياه الجوفية، الساحة العتريسية فقط هي المزودة بمياه نقية وشـبكة صرف صحي حديثة.

لا أدري كيف انتشر خبر وجودي في القرية بهذه السـرعة، فعنـدما كنت أخرج لشراء بعض الحاجات الأساسية كان البائعون يعاملونني بلطف ويقولون بمودة: مش حضرتك مدرس الإنجليـزي الجديـد؟ وكلما مررت على جمع من الأطفال وهم يلعبون يوسـعون لي الطريـق وهم يصيحون: هاللوو.

عرفني محمد المغربي على صديقين له هما علي عبد العال وهو مدرس لغة عربية تخرج في الأزهر ويعمل في مدرسة الخيام الإعدادية المشتركة القريبة من عزبة العتريس، والأخر اسمه عبد الحميد مرزوق وهو مهندس زراعي تخرج في كلية الزراعة جامعة أسيوط ويعمل في بنك التسليف الزراعي في مدينة أولاد طوق (عاصمة المركز).

كنا نجتمع كل ليلة تقريبا في منزلي أو في منزل محمد المغربي أو في منزل المهندس عبد الحميد لأنهما كانا عزبين مثلي أما الشيخ علي (هكذا كنا نطلق عليه) فرغم أنه لم يبلغ الثلاثين مثلنا فهو أب لولد وبنت، لأن أباه زوجه وهو طالب في الجامعة وأنجب قبل أن يتخرج ، ومن الغريب أن الشيخ علي كان يتمتع بعقلية عملية واقعية في الوقت الذي يتحلى فيه المهندس عبد الحميد بطبيعة رومانسية حالمة، فالشيخ على هو الذي يزرع أرض والده رغم أن هذا الوالد ما زال يتمتع بصحة جيدة، وهو الذي يتولى تصريف جميع الأمور المتعلقة ببيته وببيتي أبيه، سواء البيت الذي تعيش فيه أمه وأخوته الأشقاء أم البيت الآخر الذي تعيش فيه زوجة أبيه وأولادها، كما أنه كان هو بنك التسليف الحقيقي بالنسبة للمهندس عبد الحمديد، كان

الباشمهندس (كما كانوا يطلقون عليه) مخروم الجيب، كان راتبه الذي يتقاضاه من البنك لا يكفيه إلا في العشرة الأوائل من الشهر، لم يكن يضيع نقوده في الماكل والمشرب والملبس، فقد كان قليل المأكل جدا زاهد في الملبس نحيل الجسم كانه راهب، لكن نقوده وجهده كله يكاد ينفقه في شراء وقراءة أشعار العشاق وقصص الحب، وهو يكتب الشعر لكن لنفسه ولا يبوح به لأحد.

وقد أبديت هذه الملاحظة لهما يوما فضحكا ولم يغضبا لأن كل واحد منهما يعرف طبيعته وهو راض بها، قلت:

- ما أجدر أن يكون الشيخ (علي) بتكوينه الجسماني الصلب وعقليته العملية الصارمة مهندسا زراعيا، وما أجدر الباشمهندس عبد الحميد أن يكون معلما للأدب واللغة.

الشيء الغريب أننا خلال جلساتنا المتكررة في كل ليلة تقريبا لم يتطرق الحديث لذكر الشيخ العتريس، حتى إنني كلما لمست الموضوع لأجتر ما عند صديقي من معلومات بشأنه كانا يهربان من الموضوع بلباقة متعمدة، حتى توقفت عن طرق الموضوع خشية أن يشكا في هدفي إذا ما زدت في الإلحاح على ذكره.

على أي حال فإنني لم أشأ أن أضيع هذه الفترة من وقتي بدون إنجاز، رغم أنني لم احصل حتى الآن على أي معلومات ذات قيمة في البحث، فبدأت أكتب ما يمكن أن يكون تمهيدا أو مقدمة لا تتطلب مصادر أو مراجع، مثل: دوافع البحث، ومنهجه، وخطة العمل فيه، وغير ذلك من الجوانب النظرية، وسجلت الفكرة الأساسية لكل عنصر في بطاقة تمهيدا لتنظيم البطاقات وإعادة صياغتها بطريقة علمية.

بطاقة رقم (١)

المشكلات الجوهرية التي يعاني منها الشعب المصري بل كل شعوب العالم الثالث تتمثل في ثلاثة عناصر هي: الجهل والفقر والمرض، وغالبا ما يضعها العلماء في مصطلح واحد هو (التخلف) لكن اختزالها بهذا الشكل يصورها على أنها مشكلة بسيطة تتراوح بين قطبين هما: «التقدم إلى الأمام أو التخلف إلى الوراء» لكن الجهل والفقر والمرض يمثل إشكالية معقدة وليست متعددة أو مركبة، فالجهل سبب في كل من المرض والفقر، والفقر سبب في كل من المرض والجهل، والمرض سبب في كل من الجهل والفقر، ينتج عن هذه الإشكالية عدد من المظاهر أهمها غياب التفكير العلمي بين الناس، وسيادة ظاهرة التغييب، أي إسناد جميع الأسباب إلى قوى خفية، مثل السحر والقوى الخفية للشجر والبحر والأحجار الكريمة، وانتشار الاستعباد بين البشر بحجة امتلاك قوى خارقة سواء الأحياء أو الأموات، وهذه نفسها هي الآلهة القديمة في الشعوب المتخلفة.

لذلك كان من واجبات الجامعة بث رسالة التنوير في المجتمع وتعريف الناس بحقوقهم وواجباتهم، والقضاء على الظواهر السلبية الخرافية التي تتعارض مع التفكير العلمي.

ولذلك فإن هدف البحث هو الكشف عن واحدة من مظاهر التخلف في المجتمع المصري، وهي انقياد الجماهير الجاهلة لشخص معين دون وعي واستغلال هذا الشخص أو مجموعة من أتباعه ومريديه لهم تحت دعوى امتلاكه لقدرات خارقة يسمونها أحيانا البركة وأحيانا أخرى الكرامات.

وبذلك فإن مشكلة البحث تتمثل اكتشاف الأسباب التي تجعل مجموعة من الناس تسلم إرادتها وحريتها وأحيانا أموالها وأعراضها لشخص ما لا يملك أي مقوم من مقومات القيادة.

أين يوجد الخطأ؟ وكيف؟ولماذا؟ومتى؟

بطاقة رقم (٢)

المنهج المناسب لمثل هذا الموضوع هو البحث الميداني، أي دراسة الظاهرة على أرض الواقع، أي جمع البيانات ثم تحليلها واستنباط القوانين التي تحكمها، وهو منهج يشبه المناهج المستخدمة في القضاء على الآفات الضارة، فعلماء النبات مثلا إذا أرادوا إجراء بحث عن حشرة الفاكهة مثلا، جمعوا البيانات المتعلقة بتكاثرها وأطوار نموها والظروف التي تعيش فيها، فإذا عرفوا كل شيء عنها أصبح القضاء عليها من أيسر الأمور، كأن يكسروا حلقة واحدة من حلقات التكاثر، أو يدخلوا تغييرا طفيفا على البيئة المحيطة بها أو غير ذلك.

....

....

في أحد اللقاءات المسائية مع الأصدقاء قال لي الشيخ علي: هل لديك مانع في أن تعطي دروسا في اللغة الإنجليزية؟

قلت له: أين؟ ولمن؟

قال: في المدرسة الإعدادية التي أعمل بها، لطلاب وطالبات الفرقة الثالثة، بمدرسة الخيام الإعدادية المشتركة.

خشيت إن أنا وافقت أن يطلب مني تقديم البطاقة وفي هذه الحالة يبدأ التساؤل: مالذي يأتي بمدرس مساعد في بعثة خارجية إلى جامعة هارفارد للحصول على الدكتوراه في هذا المكان؟؟ سوف يبدأ الشك، ثم تفشل كل الخطط التي دبرتها.

وخشيت أيضا إن أنا رفضت أن يعلل رفضي بعلل كثيرة. ثم يبدأ التساؤل حول السبب في مجيئي إذا كنت أرفض النعمة التي جاءتني إلى مكاني.

قلت - لأعطي لنفسي فرصة للتفكير في الرد المناسب -: كيف؟.. وليس هناك تعيينات مدرسين هذه الأيام؟

قال: - ليس الأمر أمر تعيين ولكن أنت تعرف أن التلاميذ هنا ضعاف في اللغة الإنجليزية ونحن ننظم لهم دورات تقوية، فقلت التلاميذ يستفيدوا وانت أيضا تستفيد.

رحبت بالفكرة، لأن مخاوفي قد تبددت ولم يعد هناك ما يمنع، بل أملت أن يفتح لقائي بالتلاميذ مصادر لم أكن فكرت فيها. وقد كان، فبعد عدة أيام من قيامي بالتدريس في فصول التقوية التي كان يشرف عليها الشيخ علي جاءني رجل وسيم يرتدي بدلة زرقاء أنيقة، وقدم لي نفسه:

- أحمد علام المحامي، والد التلميذ محمد، تلميذ عند حضرتك في المجموعة، ولو كان وقت حضرتك يسمح ممكن تشرفني في بيتي لإعطائه درس خصوصي في اللغة الإنجليزية؟

لم يكن في وسعي أن أرفض أسرني الرجل بذوقه الرفيع وأدبه الجم الذي بدا من الرجل، ولأني أحببت أن أوسع من الدائرة الضيقة التي أدور فيها في فلك الشيخ علي والباشمهندس، فقررت الذهاب إليه ولو من غير مقابل.

وافقت، فشكرني الرجل، وقال: سوف يأتيك ابني محمد في بيتك بعد العصر ليصحبك إلى بيتنا.

عندما ذهبت إليه في الميعاد المحدد اكتشفت عالما جديدا، كان

منزله في الجهة الغربية من القرية عبارة عن فلا من دورين، أمامها حديقة كبيرة، الدور الأول من الفيلا عبارة عن صالة استقبال للضيوف فقط، بالإضافة إلى الحديقة التي تستخدم أيضا للسهرات الصيفية، مصفوفة كبيرة من الكنب ذي المساند الخلفية والجانبية (الدكك).

بعد أن انتهيت من الدرس مع ابنه محمد أصر على أن أتناول معه الغداء، بعد الغداء جلسنا في الحديقة لتناول الشاي والقهوة، لم نكن وحدنا، كان في الحديقة عدد غير قليل من الشباب والشيوخ، يظهر من تعاملهم التلقائي أنهم من رفاقه وأحبابه وأقاربه، كانوا يقومون بخدمة أنفسهم، كأنهم أصحاب مكان، أخذ يعرفني بهم يعرفم بي، فوجئت أن الجميع يعرفني رغم أنني لا أعرف منهم أحدا بالاسم، ربما يهيأ لي أني رأيت بعضهم أثناء سيري لكن لا أذكر اسم أي منهم.

الذي علق في ذهني بعد أن غادرت المكان إلى بيتي أن واحدا من أصحاب الأستاذ أحمد علام المحامي كان أمينا للمخازن بالجمعية التعاونية الزراعية ثم أصبح عضوا بالمجلس المحلي بالمحافظة، وأنه كان متهما في قضية تتعلق بالكسب غير المشروع وأشياء أخرى، وأن الاستاذ أحمد انتزع له البراءة.

أخذت بعد ذلك أتردد على مجلس الحديقة، وبخاصة بعد انتهاء درس اللغة الانجليزية، يومي الأحد والأربعاء، وتوطدت علاقتي بالجماعة التي تحيط بالأستاذ أحمد، حتى أصبحت كأنني واحد منهم. كان فيهم رجل كبير في السن ربعة متوسط الطول يرتدي دائما جلابية بيضاء نظيفة أصلع، وكانوا يوقرونه جميعا اسمه محمد العبابدي، كان مديرا للإدارة التعليمية وأحيل للمعاش منذ سنوات، وكان فيهم أيضا شاب في الثلاثينيات يعمل مفتشا للتموين، وباقي الشلة من الفلاحين أصحاب الأراضي الزراعية.

المعلومة الغريبة التي حصلت عليها في هذه اللقاءات هي أن الشيخ عبد الجبار العتريس ليس شخصا واحدا، بل هم ثلاثة، قال الأستاذ محمد العبابدي يوما وهو يجتر ذكرياته القديمة:

- كانت الأرض التي تقع عليها الساحة العتريسية أرضا زراعية تخص الدائرة السنية وكانت ملكا لعم الملك، وكانت مساحة هذه الدائرة قبل الثورة سبعة آلاف فدان، في يوم من الأيام جاء الشيخ عبد الجبار، لا يعلم أحد حتى الآن من أين جاء، ويقال إنه كان أصم أبكم لا يفهم إلا بالإشارة، وأقام في بيت من بيوت الدائرة يتعبد، حتى أصبح من أهل الله.

سكت قليلا كأنه يتذكر شيئا ثم قال:

- ويقال إن الذي سماه عبد الجبار هو الملك فاروق نفسه لأن الملك كان في نزهة في شمال الهند وبينما هو في جبال الهملايا وحده خرج عليه أسد مفترس وكاد ينقض عليه فلما لم يكن بينه وبين الأسد إلا بضع خطوات خرج رجل مكتنز الجسم أبيض البشرة أصفر الشعر أزرق العينين فامسك بالأسد من أذنه وجره كما يجر الراعي معزته، وانصرف به، فلما عاد الملك بعد عدة أشهر زار عمه في عزبته فوجد عنده هذا الرجل نفسه الذي انقذه من الأسد، فقص على عمه ما رأي فمنحه عم الملك هذه القطعة من الأرض لتكون مقاما له.

قال مفتش التموين: لكن والدي رحمه الله قال لي أنه قابل الشيخ يوما، وأنه كان أسمر طويلا، وليس أبيض البشرة أخضر العينين!!

تبسم الأستاذ محمد العبابدي وقال:

- هناك معلومة أنتم لا تعرفونها، وهي أن هناك ثلاثة أشخاص، كل واحد منهم اسمه عبد الجبار العتريس، الأول مات

سنة١٩٥٨ والثاني مات سنة ١٩٨٠ والثالث هو الموجود الآن. وربما يكون الذي رآه والدك رحمه الله هو عبد الجبار الثاني فقد كان أسمر فعلا.

قلت: - وهل حضرتك رأيت الشيخ عبد الجبار بنفسك؟؟

قال: - أنا عشت في زمان الأول والثاني ولم أر إلا الثالث، وبالمناسبة فإن رؤية الشيخ نوع من الحظ، فإنك يمكن أن تظل سنة تحاول مقابلته فلا تتمكن من ذلك، بينما يمكن أن تقابله صدفة في السوق على هيئة تاجر غلال أو في صورة شحاذ أو حتى في حتى في صورة زعيم عصابة من اللصوص يجلسون ليلاعلى شاطئ النيل عند عبارة البلينا، وفي الوقت نفسه يراه آخرون في مصنع السكر في نجع حمادي.

قلت لنفسي: وهل يمكن أن يكون الرجل الذي رايته عن المعدية عند قدومي أول مرة هو الشيخ الذي أبحث عنه؟

قال الأستاذ أحمد المحامي:

- وهل تصدقون هذا الكلام؟ هل يجوز عقلا ولا عرفا أن يوجد رجل في مكانين مختلفين في وقت واحد؟ وقال إيه:

لما مات العتريس معرفش الأول ولا الثاني طار بنعشه في الهوا وبالغصب شدوه لتحت، دا كلام مايتصدقش ياجماعة في العصر ده هو احنا عبط؟

صدرت عن الجالسين همهمات استعاذة من اللعنة التي يمكن أن تحل بهم من هذا الكلام،

قال مفتش التموين مؤيدا كلام المحامي:

- أنا أعتقد أن مافيش حاجة اسمها العتريس وأنها شخصية صنعها مجموعة من المنتفعين في عقول الناس الطيبين، والدليل على هذا، أين تذهب النذور التي تقدر بالملايين؟ من أين جاءت الأموال لناس في بلدنا كانوا شبه متسولين فأصبحوا أعضاء في مجلس الشعب وأصحاب شركات وأبراج في الإسكندرية والقاهرة؟ هل بركات الشيخ كما يقولون هي التي صنعت كل هذا؟

استأذنت في الانصراف لما رأيت النقاش أخذ يشتد، فلم أشأ أن أدخل نفسي في هذا الأمر بصورة علنية، وفي اليوم التالي أخبرني صديقي محمد المغربي أن البوليس قبض عند الفجر على كل من

الأستاذ أحمد علام المحامي والأستاذ مصطفى زيدان مفتش التمـوين وأرسلا إلى المعتقل بالواحات بتهمة انتمائهما لتنظـيم يسـاري كـافر يخوض في أمور الدين ويعمل علي قلب نظام الحكم.

دب الخوف في قلبي، فأنا حديث العهد بمعرفة الرجلين، وربما أتهم بأنني واحد من هذا التنظيم السري الذي لا أعرف عنه شيئا، وربما أتهم أيضا بأنني من الخابرات، وفي كلا الحالين أنا في موضع تهمة.

قلت لمحمد المغربي: وهل كان للأستاذ أحمد علام نشاط سياسي خطير في العاصمة؟ أو في الإسكندرية؟ فقال: أبدا هو منذ تخرجه من الجامعة لا يذهب إلى القاهرة آه الإسكندرية إلا نادرا وليس له أي نشاط من هذا النوع.

قلت: - وكيف يقلب نظام الحكم وهو في هذا المكان النائي؟

قال: أبدا لعلها واحدة من كرامات سيدي العتريس، فالأستاذ أحمد يجدف.

قلت: يجدف؟ ما معنى أنه يجدف؟

قال: أي أنه ينكر بركات الشيخ ويشكك في ولايته، وما فعل أحد ذلك إلا حلت به مصيبة، كأن تحرق زراعته أو تموت بهيمته أو

يقبض عليه البوليس ويعتقل في تهمة لم يرتكبها أو يقتل على يد مجهول.

ثم استطرد قائلا: أنا أحكي لك حكاية ولكن تعاهدني ألا تبوح بها لأحد، قلت والله إن سرك مصون ولا اخونك أبدا. قال:

- هل تعرف صديقك الباشمهندس عبد الحميد؟
- نعم أعرفة رجل طيب ومحترم.
- هل تعرف لقبه الذي يطلقه الناس عليه في بلدنا كلها؟
- لا..
- إنهم يسمونه «أوزوريس»
- لماذا؟
- هذه هي الحكاية التي أردت أن أخبرك بها. حدثت منذ سنة، كان عبد الحميد يحب بنت جميلة جدا في القرية، كانت تلميذة في ثانوي، خطبها من أبيها ووافق الأب، كانت البنت تقول إن الشيخ العتريس كان يجيء لها مرة على هيئة قسيس يقابلها في الطريق، ومرة على هيئة شيخ أزهري، ومرة في المنام، ويقول لها في كل مرة: أنا أحبك وأريدك لنفسي.

البنت قالت لأمها وأمها قالت لأبيها، أبو البنت الله يرحمة كان إمام مسجد، وكان لا يؤمن بحكاية المشايخ والأضرحة ويعتبرها نوعا من البدع والخرافات.

- البنت اختفت ولا يعلم لها أحد أثرا حتى اليوم؟ والد البنت كان ذاهب في فرح فأصابته طلقة طائشة فمات في الحال، جميع الذين كانوا يترددون على هذا الرجل في المسجد قبض عليهم البوليس بتهمة قلب نظام الحكم، وهم في المعتقل حتى الآن.

منذ ذلك الحين والمهندس عبد الحميد لا يكف عن البحث عنها، بل أصيب بداء الهيام والعشق فأصبح مثل مجنون ليلى لا يكف عن إنشاد أشعار المحبين وحفظ دواوينهم، فتش عنها في جميع القري ومغارات الجبال وفي الحقول وعلى قمم النخيل، لم يترك شبرا في البر كله لم يبحث عنها فيه ولم يعثر لها على أثر، قلت: وأين البوليس؟ لماذا لم يبلغ رجال البوليس بهذه الوقائع الخطيرة؟

قال: رجال البوليس أكثر الناس إيمانا بكرامات العتريس، وهم يعتقدون اعتقادا جازما أن الشيخ العتريس هو الذي تزوجها

والسلام، وقيدت القضية مثل غيرها من القضايا المشابهة ضد مجهول..

صمت قليلا ثم قال: ليس رجال البوليس وحدهم بل كبار المسئولين يأتون إلى هنا لالتماس البركة من مقام الشيخ.

اقترب مني ثم همس في أذني: كل رؤساء الدول العربية وملوكها يأتون إلى هنا سرا السفيرة الأمريكية تاتي كل شهر.. الرئيس الأمريكى بوش نفسه ياتي لالتماس البركات من الشيخ هل اقتنعت؟

رجعت إلى بيتي ورأسي كاد ينفجر، عزمت أن أرسل خطابا لأستاذي في هارفارد أعتذر له فيه عدم قدرتي على مواصلة البحث، لكني تراجعت.

‌‌CSCSCS

عزيزتي فاطمة..

أنت رسبت في الاختبار.. أنا لا أصلح لك وأنت لا تصلحين لي.. اذهبي أنت إلى الجنة وحدك أما أنا فاتركي لي جهنم..............

جابر

أسئلة كثيرة تواردت على ذهني بعد قراءة الرسائل: إذا كان قد

ذهب إلى هذا المكان للبحث العلمي الخالص لماذا لم يخطر الجامعة؟ لماذا اخفى أمره على السلطات المصرية؟

ما هذا الاختبار الذي رسبت فيه فاطمة الزهراء؟

لماذا لم يذكر اسم فاطمة صراحة واسمه إلا في الرسالة الأخيرة؟

ولماذا ربط بين علاقته بها وبين هذا الاختبار؟

ذهبت بنفسي إلى مكتب الدكتورة فاطمة.. رحبت بي.. فهي المرة الأولى التي أذهب إليها بنفسي.. رفضت أن أشرب شيئا رغم إلحاحها لعلها خمنت السر في مجيئي صرفت زميله لها في المكتب بلباقة. قلت: قهوتي أن تخبريني عن شيء واحد وهو هذا الاختبار الذي رسبت فيه مع الدكتور جابر

قالت: اختبار غريب جدا لن تصدق ما جاء فيه.

- كيف؟
- من ضمن الأسئلة التي كان علي أن أجيب عليها: لو أنك وقعت في أزمة مالية طاحنة وعرض عليك رجل أن تطلبي ما تريدين من الدولارات شريطة أن تسلميه نفسك فما هو الرقم الذي تكتبينه في الشيك؟ وكم إذا طلب أن تسلميه أمك؟ أو أن تبيعيه أباك؟

- وبم رددت عليه؟
- كتبت له جملة واحدة: أنت سافل ومنحط.

س بعد كل هذا هل يئست من البحث عن جابر؟

ج نعم ازددت حيرة لكنني ازددت إصرارا على أن أبحث عنه وحدي بصفتي الشخصية مهما كلفني الأمر، فأنا بطبيعتي عنيد.. بدأت أفكر في رسم خطة علمية محكمة للبحث عنه، استحضرت في ذهني كل من أعرفهم من الصعيد فلم أجد إلا صديقي سيد السنهوري وهو من بني سويف التي تبعد كثيرا عن البلينا، بل ربما لم يذهب إلى هناك قط، فكرت في سؤال أساتذة الآثار فهم على صلة دائمة بالصعيد، وبخاصة أساتذة الآثار الفرعونية، دلوني على أستاذ كبير في المصريات اسمه الدكتور أحمد عاكف، في الثمانين من عمره قالوا عنه: إنه يعرف جنوب الصعيد شبرا شبرا، حكيت له حكاية جابر فضحك الرجل حتى اهتز جسمه من الضحك، وقال: وهل تصدق هذه الخرافات، هل تصدق أن يكون في هذا الزمان الفاسد شيخ صالح له كرامات؟ وهل إذا كانت له كرامات حقا فكيف لا تتحقق إلا في الشر مثل خطف البنات؟.

هذه المنطقة التي تتحدث عنها بالتحديد كانت مدينة فرعونية قديمة، كان اسمها القديم «لامبير» وكان حولها عدد من المعابد، أنا لم أزرها منذ خمسين سنة، ولا يستبعد أن يكون شيخك هذا الذي يسمونه العتريس أحد لصوص الآثار الكبار...... سكت الرجل طويلا ثم قال:

- هل تصدق أن لصوص الآثار أحيانا يتتحلون شخصيات الدراويش، ويلبسون ملابس الدراويش ويطلقون لحاهم ويصومون ويصلون حتى يثق فيهم الناس، الشعب المصري شعب طيب ومن السهل الضحك عليه، ثم قال:
- عندما كان الخواجة ماسبيرو في الأقصر جاء معه رجل فرنسي، هذا الرجل أطلق لحيته ولبس خرقة الصوفية وأصبح شيخ طريقة يقبل الناس يده، ولم يعرف الناس حقيقته رغم أنه نهب نصف آثار القرنة في البر الغربي، وأصبح صاحب أكبر ملهى ليلي في موناكو ومن العجيب أن الناس في الأقصر بنوا له ضريحا بعد موته ودفنه في فرنسا وما زالوا يقدمون له النذور ويتوسلون ببركاته.

قهقه الرجل فاتحا فمه الثمانيني الذي يشبه الكوخ المهدم ثم قال بصوت كالفحيح هل تصدق أن أحد علماء الآثار الفرنسيين واسمه مسيو دوبي ممن كانوا يعملون في جنوب الصعيد كان صديقا لأحد مستشاري أدلف هتلر ولما هزم هتلر لم يجد هذا المستشار من يحميه سوى صديقه الفرنسي. فاصطحبه معه إلى الصعيد على أنه أحد أعضاء البعثة الأثرية رغم أن الجيش الإنجليزي كان يملأ الأراضي المصرية وتركه هناك على أنه ولي من أولياء الله الصالحين بل إن أحد المؤرخين السويسريين يذهب إلى أن هذا الرجل ربما يكون هتلر نفسه

ضقت ذرعا بكلام الرجل فهو يسهب فيما لم أسأل عنه، فأنا الآن لا أبحث عن الشيخ العتريس ولا عن لصوص الآثار الفرنسيين أنا أبحث فقط عن عضو هيئة تدريس ضايع.

في الإجازة الصيفية قررت أن أسافر بنفسي إلى الصعيد مهما كلفني الأمر من مشقة أو مخاطرة ، ركبت القطار الذي يتحرك من محطة رمسيس في الساعة الحادية عشرة ليلا حتى أصل إلى محطة البلينا صباحا، ولا أتعرض لخوض التجربة التي مر بها جابر، تحرك القطار

من محطة الجيزة، بدأ شخير الركاب في العزف على الإيقاع الرتيب لدوران العجلات، هجمت على عقلي جيوش التأملات والأوهام، فيض من أسئلة لا إجابة عليها.

ماذا لو كان كلام الدكتور أحمد عاكف صحيحا؟ ألا يجوز أن يكون الشيخ العتريس هذا رئيسا لعصابة لسرقة الآثار؟ ماذا يحدث لو أنك صرحت بهذا الافتراض أمام مريديه؟ لو فعلت ذلك فسوف يقطعونك إربا، وهل أنا ساذج إلى هذه الدرجة؟ وإذا كان الأمر كذلك لماذا اختطفت الفتاة التي اسمها إيزيس كما ورد في خطابات جابر؟ وما صلة كل ذلك باختفائه هو؟

ألا يكون جابر قد اكتشف سر هذه العصابة فتخلصوا منه؟........ لا أدري متى نمت، خيال حلم.. تتوالى لا فتات المحطات.. الواسطي.. بني سويف... المنيا. «الكمساري يطلب التذاكر» «أسأله عن محطة البلينا» (لسة بدري.. نام). ملوي... أسيوط.. سوهاج.. جرجا (صوت: المحطة القادمة البلينا.. شكرا)

نزلت إلى محطة البلينا. تبين لي أنني أخاطر بنفسي. دفعني حماسي إلى التصرف بلا تخطيط. ماذا سوف أقول هناك؟ ماذا لو كان جابر قد

فعل فعلة من نوع ما؟ أأكون أنا الضحية بلا ذنب؟ قادتني رجلاي إلى المعدية، عبرت النيل مع العابرين. مشيت في زحمة الركب نحو الشرق، قررت أن أستعين بفطنتي ولا أسأل أحدا، يبدو أن أكثر السائرين معي مقصدهم هو نفس مقصدي، حشد من الحجيج يدفعك دفعا للطريق المقصود، وهذا لا يحوجك للسؤال ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس، اجتزت البوابة كما جتازها جابر زاد عدد المجاورين واحدا هو أنا، أخذت وجبة الإفطار وجلست مثلما يجلس الناس ومثلما جلس جابر من قبل.

لمحت رجلا له ملامح أوربية يجلس وحده، قلت لنفسي هذا أول الخيط، ترددت في الذهاب إليه، لن أجازف بأي حركة دون تخطيط، قلت لأحد المريدين من لابسي الخرقة: ما الذي جاء بالأوربيين في هذا المقام الطاهر، رد علي الرجل بابتسامة مؤدبة، كتلك التي ترتسم على وجه رجل محنك عندما يسأله طفل لا خبرة له: هذه بركات سيدي، الأوربيون يأتون هنا بكثرة، بعضهم للسياحة والفرجة والبعض الآخر للبركة، وأكثرهم لا يغادر المكان إلا مسلمين وموحدين بالله.

قررت أن أتحدث مع هذا الأوربي، اقتربت منه حييته بالإنجليزية Good morning أجابني بعربية مكسرة: صباح خير، سألته بالعربية عن رأيه فيما يرى من إقبال الناس على الأضرحة والتبرك بها، لم يفهم السؤال، تبين لي أنه لا يحفظ إلا بضع كلمات من اللغة العربية، حدثته بعد ذلك بالإنجليزية، حدث بيننا ألفة، كنت صريحا معه، قلت له أنني أستاذ بالجامعة، ولم أكشف له طبعا عن سر مجيئي، اكتفيت بقولي إنني قادم للسياحة والفرجة، أما هو فقد عرفت منه أنه أستاذ في مركز أبحاث طبية في جامعة ألينوي، وعرفت منه أيضا أنه قادم إلى هنا لأغراض علمية خالصة.

قلت له: - وهل تقيم هنا؟

- لا أنا أنزل في فندق في البلينا.
- وهل تأتي إلى هنا كل يوم؟
- تقريبا فالمسافة لا تستغرق أكثر من ساعة وأنا أستغلها باعتبارها رياضة.

قلت له: وأنا أيضا أريد أن أقيم في فندق في البلينا وأحضر إلى هنا بين الحين والآخر.

رحب بي بحرارة، وقال إنه تعرف على صاحب الفندق، وهو رجل طيب ويمكن أن أصحبه في العودة.

توطدت علاقتي بالرجل، عرفت اسمه جون ماكنري، شرح لي المهمة التي هو قادم من أجلها، إنها مهمة علمية خالصة في خدمة الإنسانية جمعاء – كما قال لي – فهو والفريق البحثي الذي يعمل معه اكتشفوا الجينات المسببة للسلوكيات البشرية داخل الخريطة الجينية، فقد حددوا مثلا الجين الخاص بالذكاء عن طريق فحص خلية من رفات أينشتين، وحددوا مواصفات الجين الخاص بالوهبة الموسيقية من خلال تحليل شعيرات من رفات بيتهوفن، لكن المشكلة لديهم الآن هي محاولة اكتشاف الجينات الخاصة بالاستبداد، قال لي إنهم كانوا يأملون في الحصول على عينة من جسد هتلر أو موسوليني ففشلوا في ذلك لأسباب كثيرة، لكن وزارة الخارجية البريطانية منذ عدة سنوات أفرجت عن الملفات السرية الخاصة بالحرب العالمية الثانية بمناسبة مرور خمسين سنة عليها، ومن ضمن هذه التقارير أن أحد أكبر مستشاري هتلر والراس المدبر للنازية قبض عليه الإنجليز في جزيرة مالطة ورحلوه إلى مصر،

واحتفظوا به سرا هنا في عزبة عم الملك فاروق لأهداف تخابرية حتى مات ودفن في هذا المكان الذي أصبح الآن ضريحا للشيخ العتريس.

فتح حقيبة صغيرة كانت في يده وأخرج منها ألبوما وفتح إحدي صفحاته وكشف لي صورة لرجل يشبه هتلر إلى حد بعيد ثم قال لي مشيرا إلى الصورة: هذا هو الرجل الطاغية الذي حدثتك عنه.

قلت له: - أنا أنصحك ألا تذكر ذلك عند بحثك عن جثة هذا الرجل.

قال: - ولماذا؟ أنا أخبرت السلطات الأمريكية بهدفي، والسلطات المصرية وافقت على مهمتي فأنا لا أريد إيذاء أحد أنا أخدم الإنسانية. بل إن الحكومة الأمريكية مع الاتحاد الأوربي قرروا فتح مركز علمي متخصص في جنوب مصر لخدمة أصدقائنا في الشرق الأوسط وإفريقيا

قلت له: لكن الناس هنا لا يفهمون ذلك؟

قال: وماذا أفعل إذن؟ بم تنصحني؟

قلت: أن تقول إن هذا الرجل الذي أبحث عن قبره هو جدي، عندئذ سوف يساعدونك في زيارته أو أخذ رفاته كله ونقله إلى أوربا.

قال: هذه فكرة جيدة، لكنني لا أريد إلا خلية واحدة ربما تكون شعرة واحدة من راسه فقط.

قلت: وأنا سوف أساعدك في ذلك.

فكرت في أن هذه فرصة للتجول معه في المنطقة بحثا عن هدفي تحت ستار أنني مترجم له، كما أن هناك فرصة اخرى وهي أنه يحمل الجنسية الأمريكية فلن يعترضه البوليس، وإذا حدث له أي مكروه فسوف تقلب السفارة الدنيا بحثا عنه، وانا معه طبعا.

أول ما فكرت فيه أن آخذه وأذهب إلى عزبة العتريس (القرية التي عاش فيها جابر)، فأنا أعرف بعض أسماء أهلها من خلال قراءتي لرسائله، في البداية أخبرته بالطريق الذي ينبغي أن نسلكه، وافق بترحاب، خرجنا من الفندق وسلكنا الطريق الذي نسلكه إلى مقام العتريس كل يوم تقريبا، دخلنا الساحة واتجهنا نحو الجنوب الشرقي، نفس الطريق الذي سلكه جابر من قبل، مررنا على الدكان الذي التقى فيه بصديقه محمد المغربي وجدناه مغلقا، سألت أحد المارة عن منزل الأستاذ على عبدالعال مدرس اللغة العربية، فهو شخصية جادة وعملية وأنا أحب هذا النوع من الناس، طرقنا الباب،

ردت علينا سيدة من الداخل:

- مين؟ قلت:
- ضيوف جايين من مصر للأستاذ علي

قالت: يامرحب بيكم البيت بيتكم الشيخ علي في المدرسة في الخيام.. سيحضر بعد ساعة، تفضلوا في المنضرة.

فتح لنا باب جانبي لحجرة متوسطة بجوار الباب الرئيسي للبيت، حجرة لها بابان واحد للداخل والآخر للخارج.

ما كدنا نجلس حتى جاء ولد صغير ومعه صينية صغيرة عليها كوبان من الشاي أخذت منه الصينية وشربنا، بعد وقت قليل جاء الأستاذ علي – يبدو أن أهل بيته اتصلوا به – رحب بنا، قدمت له صاحبي:

- بروفيسير جون ماكنري أستاذ طب أمريكي من أصل إنجليزي. وأنا اسمي مصطفى مخلوف أستاذ النقد الثقافي بالجامعة المصرية.
- أهلا وسهلا ، شرفتونا.

فوجئنا به بعد قليل يخرج ثم يدخل وهو يحمل صينية محملة بالغداء الساخن وضعها أمامنا.

لم يكن في وسعنا أن نرفض دعوته بعد أن حضر الطعـام ،شـرحت لصديقي جون هذه الثقافة المصرية الأصيلة وسـاعدته عـلى التعامـل مع الخبز الشمسي والحمام المحشو بالفريك.

بعد أن انتهينا من تناول الطعام وشربت أنا كوبـا آخـر مـن الشـاي قلت للشيخ على: إن صديقي جون يشكرك على حسن الضيافة ويرجو منك خدمه.

قال: على العين والرأس إذا كان في إمكاني تقـديمها فـأنتم ضـيوفي وأكلنا مع بعض عيش وملح.

لم أستطع ترجمة العبارة الأخيرة لجون، قلت بدلا منها: إنـه يقـول: «إننا أصبحنا كالأصحاب»

قلت للأستاذ علي: إن جـد صـديقي جـون كـان ضـابطا كبيـرا في الجيش الانجليزي قبل الثورة، وقد توفي بـالقرب مـن قـريتكم هـذه ودفن هنا، وهو رجـل بـار بوالديـه وأجـداده، ويريـد أن يـزور قبـره ويترحم عليه، وإذا أمكن أن ينقل جثمانه إلى بلده فسوف يفعل، مهما كلفه ذلك من جهد أو مال.

قال: - نحن لم نسمع عن مقابر لضباط أو جنود إنجليز في قريتنا أو في القرى المجاورة.

قلت: لكنه متأكد ومعه وثائق رسمية من وزارة الخارجية البريطانية.

قال: نحن في خدمتكم وإذا استطعنا فعل أي شيء فلن نتأخر.

أخرج الدكتور جون من حقيبته خريطة ملونة وفردها أمامنا، مكتوب عليها كلمات منمنمة باللغة الإنجليزية، يظهر عليها خط النيل المتعرج وحوله الوادي الأخضر ثم الصحراء، مد إصبعه نحو منطقة داكنة مثل بقعة الحبر ثم قال It's Baliana city، مرر إصبعه عبر الخط الذي يمثل النيل وسار في خط مستقيم شرقا، توقف عند نقطة محددة ثم قال here.

أدركت الانزعاج الشديد في وجه الأستاذ علي، صاح رغم قدرته على ضبط انفعالاته:

- لكن هذا مقام سيدي عبد الجبار العتريس؟!.... هل يعقل أن تلتصق رفاته ورمة رجل إنجليزي كافر في قبر واحد؟

عقدت العزم بيني وبين نفسي وعاهدت الله تعالى على أنه لو صدق ما توقعه الدكتور أحمد عاكف أستاذ المصريات بأنه ليس هناك شيء اسمه الشيخ عتريس وإنما هو لص آثار محترف، أو أنه - كما توحي به سجلات وزارة الخارجية البريطانية - واحد من أخطر أقطاب

النازية، عاهدت الله ونفسي أنه لو كان كذلك لأقومن بحركة تصحيح للأفكار والمعتقدات الهدامة لم حدث مثلها في مصر، لا على يد رفاعة الطهطاوي وعلي مبارك ولا على يد لطفي السيد. ثـورة ثقافيـة تفضـح الزيف وتكشف الحقيقة أمام الناس، سوف أكتب في الصحف سوف أصيح في الشوارع وفي القرى: إن ما تعتقدون أنه سيدكم عبـد الجبـار العتريس لا وجود له، إنه اسـم مسـتعار، اسـتخدمه لصـوص الآثـار والنازيون والإنجليز.

قال الشيخ علي وصوته متهدج من الانفعال: على أي حال أنا لست على دراية كافيـة بـالفترة التـي شـيد فيهـا المقـام العتريسـي في هـذه المنطقة، هنا في القرية من هم أسن مني وهم يعرفون عن الشيخ أكثـر مما أعرف، وذكر لنا مجموعة من الأسماء منها اسم الأسـتاذ محمـد العبابدي مدير الإدارة التعليمية السابق الذي ورد اسـمه في خطابـات جابر الفقي.

قلت: وهل لنا أن نلتقي بهم؟

قال: أنا أخبرهم وهم لن يرفضـوا معـاونتكم، وفي الوقـت الـذي تريدونه.

قلت متسرعا: غدا؟

قال: لا مانع، غدا بعد العصر تشرفونا إن شاء الله.

في اليوم التالي حضرنا قبل الوقت المحدد، اصطحبنا الأستاذ علي إلى منزل الأستاذ أحمد علام المحامي، وجدناه جالسا مع أصحابه في الحديقة كما وصفها جابر.

ما كدنا نجلس حتى امتلأت الحديقة على اتساعها بالبشر، المقاعد لم تسع الناس، زحام كثيف من الرجال والأطفال كأنه سوق أو فرح، الحوائط والشرفات اكتظت برؤوس النساء. رحب بنا صاحبة البيت وقدم لنا القهوة بنفسه، كان هناك عدد من الشيخ الذين تبدو عليهم سيما الوقار، تفضل الشيخ علي بتعريفي وتعريف الكتور جون، لم يكمل بتعريفهم لنا، رغم أنني أحسست بأن أمرنا قد ذاع وليسوا في حاجة لمعرفتنا.

قال الأستاذ محمد العابدي موجها كلامه لي: ما حكاية هذا الخواجا يااستاذ مصطفي؟

قلت: إن معه وثائق تقول إن جده مدفون في هذه البقعة الموجودة في مقام الشيخ العتريس.

قال: ومن أين جاء بهذه الوثائق؟

قلت: من وزارة الخارجية البريطانية.

قال: ومتى كان جده هنا؟

قلت: جاء إلى هنا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية يعني حوالي سنة ١٩٤٦أو ١٩٤٧

فاجأنا الرجل بقوله: وهل معكم صورة للرجل؟

سألت الدكتور جون إن كان يحمل صورة للرجل.

فتح جون حقيبته وأخرج عدة صور مقتطعة من صحف قديمة ونشرها أمامنا.

ما كاد الرجل ينظر أليها حتى صاح بأعلى صوته: الله أكبر، الله أكبر سيدي عبد الجليل بعينه.

وأمسك بالصورة وأخذ يعرضها على الجالسين وهم من شدة الذهول لا يملكون السيطرة على صيحاتهم وملامح وجوههم، فوجئنا بأن واحدا من الجالسين قام وأمسك برأس الدكتور جون وأوسعها تقبيلا والدموع تسيل من عينيه «سيدي وابن سيدي، بركاتك بركاتك»

انزعج جون انزعاجا شديدا لأنه رأي مالم يتوقعه.

ارتفع صراخ الأستاذ أحمد علام حتي خشينا على حنجرته من شدة

الصراخ: جهلة متخلفون بهايم، راجـل إنجليـزي، شـيخ وولي إزاي، فين العقل والدين؟

ارتفع صوت آخر من الجالسين يكاد يقارب صوت أحمد عـلام في صراخه: باأستاذ أحمد لا تجدف، لا تكفر بالله وبالأولياء، مالمـانع أن يكون الإنجليزي وليا من أولياء الله؟ ألم يكن سيدنا سلمان فارسيا؟ ألم يكن سيدنا بلال حبشيا؟

ماج الموقف وهاج، واضطربت الأمور من كل ناحية، اصفر وجه الشيخ علي لا أدري من الخوف علينا أم الخوف منا، خرجنا فخرجت الحشود وراءنا كاننا في جنازة، بعد قليل فوجئنا بالسيارات المصفحة لقوات الأمـن المركـزي، وبحشـود الجنـود تقـف سـدا منيعـا أمـام الزحف الجماهيري الذي يزداد في كل لحظة، نصبت خراطيم الميـاه لتفريق الحشود، استعد الجنود بالقنابل المسيلة للدموع.

اقتادوني وصاحبي نحو ساحة المقام وجدنا الساحة عـلى اتسـاعها خالية من الناس، لقد خرج الجميع بكل تأكيد تجاه العزبة لمشـاهدة حفيد صاحب المقام وولي عهده.

أدخلونا قاعة كبيرة ولم أدر ماذا حدث، تحسسـت رأسـي لا أدري

اين أنا وحدي في صندوق سيارة نقل مغلقة. تخبط راسي مع كل اهتزاز للسيارة.. يبدو أن الطريق جبلي غير مرصوف، التراب الجبلي ينبعث من فتحات صغيرة مضفورة بقضبان محبوكة عند السقف. لماذا؟ كيف؟ من؟ أين؟متى؟

تجمعت في راسي مئات الأسئلة التي أريد ان أطرحها لا أدري هل نمت ام غبت عن الوعي رأيت أمامي جابر الفقي بشحمه لحمه وقف بهدوء ثم قال: تعال معي.

وقفت كما وقف الدكتور جون الذي كان يرتعش، لأنه ظن أننا مخطوفون من قبل عصابة لصوص. حاولت أن أطمئنه، قلت له: مستر جابر الفقي باحث دكتوراه في جامعة هارفارد،

فرح جون فرحا شديدا وأمسك يد جابر بكلتا يديه: Hallo it's nice to see you وكررها مرتين أو ثلاثا.

قال جابر وقد أمسك بيدي وسار في ممر ضيق تحفه الأشجار والنباتات المزهرة في تناسق جميل: هل تعرف اسم هذا المكان الذي نحن فيه؟

قلت: لا.

قال: إنه دار اللذة والانبساط.

- هل تعرف لماذا سمي بهذا الاسم؟
- لا.
- لأن فيه كل ماتشتهيه الأنفس ومالا يخطر على قلب بشر.
- هي الجنة إذن؟
- ليست جنة الآخرة بل جنة الدنيا، المتعة التي يبحث عنها البشر منذ أن خلقهم الله تتحقق في جنة الأرض فما الحاجة إلى جنة الآخرة.
- وهل هناك جنة للدنيا مثل جنة الآخرة؟
- نعم. جنة الآخرة للفقراء و الطيبين والساذجين من البشر مثلك ومثل فاطمة أما جنة الدنيا فللأذكياء والفهلوية.
- وماذا في هذه الجنة؟ أقصد جنة الدنيا؟
- هذه الجنة طبقات مثل جنة الآخرة، في أدناها يعيش النازلون حياة تشبه حياة أغنى أغنياء العالم، يشرب أصحابها وهم لم يغادروا مصر المياه المعدنية التي تاتي لهم خصيصا من فرنسا، ويأتيهم الخبز ساخنا من سويسرا، وتاتيهم الفواكه

من كل أنحاء العالم حسبما يشتهون، كل واحد فيهم له طائرته الخاصة، وكل شيء مباح له يأخذ ما يشاء، لا رقيب عليه ولا حسيب، الناس جميعا رهن إشارته كل شيء مباح.

قطع حديثنا فوج من الفتيات الفاتنات اللائي يشبهن الحور العين جمالا، يتقصعن في مشيتهن، يرتدين فساتين شبه شفافة، كأنهن عرايا، كل واحدة معها قارورة من الخمر وكوب من البلور الشفاف، واحدة معها قارورة ويسكي، والثانية قارورة شمبانيا، والثالثة قارورة مارتيني، والرابعة قارورة فودكا، قال بالإنجليزية ذات اللكنة الأمريكية: تفضلوا، انفرجت أسارير الدكتور جون، وسارع بالتقاط كوب من الويسكي وصبه في جوفه صبا.

قلت: أنشرب الخمر باجابر.. حرام؟

قال: يا رجل ياطيب ألم أقل لك كل شيء هنا مباح؟ ارتفع صوت غناء الفتيات معا في صوت واحد كأنه السحر، لم أسمع غناء أجمل منه:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

شربت كأسا ثم قلت: ياأخي أنا لا أفهم شيئا.

لم أنتبه إلا عندما ضربني الجندي على مؤخرتي صائحا:

- ناموسيتك كحلي يانمرة.. نايم كمان؟

وجرجروني إلى أسفل السيارة ثم إلى مصيري المجهول.

ϬϬϬ

تمت